عبدالرحمن بن محمد القعود

الازدواج اللغوي

في اللغة العربية

و

مقالتان مترجمتان: إحداهما «أثر اللغة العربية على نفسية العرب» لشوبي. والأخرى «الازدواج اللغوي» لفرجسون.

عبد الرحمن بن محمد القعود

الازدواج اللغـوي

في اللغـة العربيـة

ومعـه

مقالتان مترجمتان: إحداهما « أثر اللغة العربية على نفسية العرب » لشوبي

والأخـــرى « الازدواج اللغوي » لفيرجســـون

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القعود، عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن

الازدواج اللغوي في اللغة العربية.- الرياض.

...ص ؛ ..سم

ردمك ٧-٦٢٩-٣١-٩٩٦٠

١- اللغة العربية - نقد أ- العنوان

ديوي ٤١٠ ١٧/١٥٦٦

رقم الإيداع : ١٧/١٥٦٦

ردمك : ٧-٦٢٩-٣١-٩٩٦٠

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

عنوان المؤلف
ص.ب : ٧٥١٣٩
الرياض : ١١٥٧٨

مقدمـــة

هذا البحث ثمرة دعوة كريمة تلقيتها من اللجنة التحضيرية لندوة ظاهرة الضعف اللغوى التى عقدت بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في ٢٣-١٤١٦/٢٥هـ . وإجابة دعوة مثل هذه - ما لم يوجد حائل لا سبيل إلى قهره - واجب ، إلى جانب كونه مشرّفا ومفيدا للباحث نفسه .

ورغم كثرة ما كتب وقيل عن الظاهرة فلا تزال هاجسا مؤرقا ، وبخاصة للمهتمين والمختصين لإدراكهم بُعدها وحجمها وخطورتها ، ولأنها إشكالية لا يوجدها عامل أو سبب واحد ، ولا يعالجها حل واحد . هى مشكلة تضافرَ على تكوينها أكثر من سبب ، ولها أكثر من مظهر ، ولا يجدى في تشخيصها وعلاجها إلا أكثر من خبير وأكثر من دواء . ورغم ما بذل ويبذل في حلها لا تزال مستعصية لا تستجيب كأنها فصل من فصول ضعف عام يعيشه الإنسان العربى، أو أنها امتداد لهذا الضعف وأحد إفرازاته . مهما يكن، لابد من استمرارية تلمس الحلول الناجعة لهذا الضعف اللغوى على أن نعطي مايُقدَّم من وجهات نظر وآراء في سبيل حله حقه من الجدية والاهتمام والمتابعة والتنفيذ وإلا بقى مجرد حبر على ورق .

وقد نظرت في موضوعات الندوة ، وكانت عديدة ومتنوعة تحاول الإحاطة بالظاهرة. ولفت انتباهى «أثر المجتمع والأسرة في الازدواج اللغوى بين الفصحى والعامية» وكان أحد الموضوعات . وهو عندى جزئية صغيرة من قضية الازدواج اللغوى الذى أعده - وبعضُ الدارسين - أحد الأسباب الرئيسة لتدنى المستوى اللغوى في العالم العربى كله ، فالفجوة بين الفصيحة والعامية واسعة . أى إن هناك مسافة بعيدة بين اللغة المكتوبة والمنطوقة يجب اختصارها. هذه الفجوة الواسعة أو المسافة البعيدة أشبه بالقطيعة بين اثنين صلاح كثير من أمر اللغة العربية في تقاربهما،أي في ردم هذه الفجوة الواسعة التى تفصل بينهما قدر ما نستطيع . من هذا المنطلق رأيت أن تكون مشاركتى بالكتابة في موضوع «الازدواج اللغوى» ليس فى جزئيته الصغيرة وإنما بشكل شمولـــــى ، ذلك أنى - كما قلت - أرى الازدواج اللغوى أحد أسباب الضعف اللغوى، لأنه معادلةٌ أحد طرفيها العامية التى تزاحم الفصيحة وتزحف نحوها في مواقع حساسة بالنسبة للغة وأهلها وهى الإعلام. وفى مواقع تعد من مواقع الفصيحة أصلا وهى المدرسة والجامعة ونحوهما . ونظرة شاملة إلى الازدواج اللغوى تفيدنا فى تبين

طبيعته وأبعاده . وربما من هذه النظرة جاء منهج تناوله تاريخيا تحليليا وصفيا وفق طبيعة موضوعاته ونوعها. وقد انتظم البحث في فصلين رئيسين هما:«الازدواج اللغوي» فصلاً أولَ و«علاج الازدواج اللغوي» فصلاً ثانيا. ويندرج تحت الفصل الأول الموضوعات التالية :

مصطلح الازدواج اللغوى

وفيه حاولت تحديد مفهوم المصطلح وتمييزه عن مصطلح «الثنائية اللغوية» التى تتخذ مفهومه أو موقعه عند بعض الباحثين. وأوضحت لماذا آثرت استخدام «الازدواج اللغوى» بدلا من «الثنائية اللغوية» أو «الفصحى والعامية» هكذا مجردا كما يكتب آخرون ، كما تحدثت عن مدى تمثيل المصطلح لما بين الفصيحة والدارجة من فجوة .

نظرة تاريخية

وهى نظرة تقول شيئا عن كيفية نشوئه ومتى ، استعانةً ببعض المصادر مثل مقدمة ابن خلدون التى سجلت لنا ثلاثة انحرافات

حصلت في اللغة العربية ، وبها تأسس الازدواج اللغوى. وهى انحرافات نحوية ودلالية وتركيبية .

الازدواج اللغوي : التأثير فيه وأثره

وفيه بينت بعضا من إسهام الأسرة والمجتمع في إيجاده أو ترسيخه . ثم أثره سواء على اللغة الفصيحة نفسها أو على غيرها. وفيه أيضا ناقشت رأى الدكتورة عائشة عبدالرحمن «بنت الشاطئ» بأنه لا تبعة فى ما نعانى من أزمة لغوية على ظاهرة الازدواج اللغوى .

ثم نأتي إلى الفصل الثاني «العلاج» إذ بعد أن استبانت آثار الازدواج كان لابد أن نتحرى علاجه . وبعد نفي للعامية علاجا ، واستصعاب للفصيحة بكل عناصرها وبخاصة النحوية في أن تكون لغة حياة يومية بديلةً للعامية وبالتالى علاجا للإزدواج اللغوى – بعد هذا طَرَحْتُ «الفصيحة الميسرة» لغة مقترحة للتحادث والتفاهم والتواصل اليومى . وجاءت تحت هذا الفصل (الثاني) الموضوعات التالية :

سمات الفصيحة الميسرة

وفيه سجلت أهم السمات التي تجعلها - في رأيي - صالحة للتواصل والتفاهم اليومي وبديلة للعامية .

عقبات في الطريق

ولأن أشياء قد ترد في بعض الأذهان بظنها عقبات فى طريق هذه «الفصيحة الميسرة» لتكون لغة حديث يومي - تناولت ما ظهر لى من هذه العقبات وأوضحت سهولة بعضها واختلاق بعضها الآخر.

مشجعات وإيجابيات

وفيه بينت أن في الماضى والحاضر ما يشجع على ممارسة «الفصيحة الميسرة» واستخدامها ، إلى جانب ما لهذه الممارسة من إيجابيات تنعكس على اللغة العربية ومكتسبيها أو متعلميها من أهلها وغير أهلها .

المنطلقـــات

وفيه تحدثت عن أهمية الأسرة والمدرسة والإعلام في منطلقنا نحو اقتحام هذه التجربة ، وما لهذه المنطلقات الثلاثة من أهمية فاعلة في نشر «الفصيحة الميسرة» المقترحة لغة حديث يومي .

وحرصت أن أرجع إلى مصادر البحث ومراجعه مباشرة لكن ضيق الوقت ، وعدم وجود بعض المصادر أو المراجع في مظانها القريبة اضطرانى إلى استعمال الوسيط من بعضها .

ورغم صعوبة «الازدواج اللغوى» وتعقيده بطبيعته وباختلافات الدارسين حوله أو بعض جزئياته فقد كان اشتغالى به مسعدا ومفيدا .

الفصل الأول

الازدواج اللغوي

(١)

مصطلح الازدواج اللغوى

لا يحظى مصطلح «الازدواجية اللغوية» Diglossia باتفاق على مفهوم محدد له. فبعض الباحثين يطلقه على «وجود مستويين لغويين في بيئة لغوية واحدة » [١] أى لغة للكتابة وأخرى للمشافهة ، أو لغة للحياة اليومية العادية وثانية للعلم والفكر والثقافة والأدب [٢] . وبعضهم الآخر يرى أن ما يُطلق على هذا المفهوم أو الوضع هو «الثنائية اللغوية» [٣] Bilingualism وليس الازدواجية ، إذْ الازدواجية «وجود لغتين مختلفتين (قومية وأجنبية) عند فرد ما ، أو جماعة ما ، في آن واحد» [٤] أو «الصراع بين العربية وبين اللغات الأجنبية» [٥] وهكذا يتبادل مصطلحا «الازدواجية» و «الثنائية» المواقع بوضع أحدهما موضع الآخر من قبل الباحثين . فالمصطلح لم يكتسب دقة التحديد ولم يستقر على أى من المفهومين . وهو هنا - ومعه الثنائية ،

والانفصامية أحيانا - جديد فى الثقافة العربية ظهر - فيما يبدو- في إطار الصراع بين الفصيحة والعامية. ويرد غالبا تعبيرا عن ما بينهما في العالم العربي من تباعد عُبر عنه - أيضاً - مرة بالاختلاف وأخرى بالفجوة وثالثة بالصراع. وحجم هذا التباعد هو ما سوغ -في الغالب- استعماله أوغيره من هذه المصطلحات.

وبصرف النظر عن ذلك الاختلاف فإنى أكاد أوثر طرح القضية هكذا «الفصيحة والعامية» مجردة من أى مصطلح لولا أن إضافة المصطلح -فى رأيى- تسترعي الانتباه، وتؤكد أهمية القضية وخطورتها. ثم إنى أوثر مصطلح «الازدواجية» لأنه -فيما يبدو- أشيع بين الباحثين ولأننا نحصل على دعم لغوى من أحد معانى الفعل «ازدوج» في قولنا: ازدوج الشئ أي صاراثنين [٦]، والفصيحة وعاميتها اثنتان من أصل واحد «أما الثنائية فإن أس دلالتها - كما يقول نهاد الموسى - مطلق العدد حتى لتطلق على متقابلات الأضداد كالخير والشر والنور والظلام ، والفقر والغنى ، وذلك أشبه بالتقابل البعيد بين اللغات المختلفة» [٧] وهذا سبب عزوفى عنها مصطلحا لما نحن فيه، وأحد مرجحات إيثار مصطلح

الازدواجية دون غيره.

وإلى جانب المفارقة في مفهوم الازدواجية ، هناك مفارقة أخرى في صدق تمثيله لما بين العامية والفصيحة من فرق ، ففى حين يرى بعضهم أن هذا الفرق يشكل حجما يسوغ إطلاق الازدواجية عليه ، يرى آخرون أنه أمر طبيعى تمليه الضرورة أو الواقعية[٨] . وفى رأيه أن «الازدواجية والانفصام مرض . ولا يسمى بهما اختلاف لهجات الناس لأنه أمر طبيعى» [٩] وربما لهذا طرح الموضوع تحت عنوانات مثل : «الفصحى والعامية» [١٠] و «بين الفصحى والعامية»[١١] دون استعمال لأى من مصطلحات الازدواجية والثنائية والانفصامية . معنى هذا أنه إلى جانب الاختلاف في معنى مصطلح الازدواجية هناك اختلاف آخر في الموقف من حالة «الفصيحة والعامية» بعض يرى أن ما بينهما شيئ طبَعى وموجود في كل لغات العالم التى تجمع بين خاصتي الكتابية والشفاهية ، والأمر لا يستدعى طرح المسألة على أنها إشكالية ، أو مرض لغوى ، لكن بعضا آخر يرى خلاف هذا التشخيص لوضع الفصيحة والعامية ، والفرق الذى بينهما يسوغ إطلاق الازدواجية

أو الثنائية أو الانفصامية أو الإشكالية اللغوية بصرف النظر عن افتراق هؤلاء الأخيرين في العلاج أو الحل ، حين حسبه بعضهم في العامية وتأصيلها ، ورآه الآخر في الفصيحة وتعميمها .

أما أن يكون للغة (أية لغة) مستويان أو أكثر ، مستوى للفكر والثقافة والابداع ، ومستوى للحديث والتعامل اليومى فهذا مالا نتوقع أن يختلف عليه أحد . هو أمر طبَعى يقره الواقع وتاريخ اللغات نفسها. والدراســات اللغوية أثبتت «أن وجود مســتويات التعــبير في اللغة الواحدة أمر طبــيعى ، بل حتمى . وأنه لا تنافي بين استعمال «لغة مثالية» في العلم والخلْق ووجود مستوى أدنى من البلاغ اللغوى المباشر المتميز» [١٢] وهذا الوضع «ظاهرة ألسنية عالمية تنطبق على عدد كبير من اللغات، ولذا لا تشكل اللغة العربية حالة استثنائية وفريدة ، بل تتساوى فى ظاهرتها هذه مع عدد كبير من اللغات» [١٣] إذن أن يكون للغة العربية مستويان (أو أكثر) شيئ طبعى كما سبق القول ، لكنّ غير الطبعى أن يتباعد هذان المستويان تباعدا يصل بأحدهما ألا تفهمه، أو تفهمه ولكن بصعوبة ، جماعة عربية لها وزنها العددى . إذا لم

تفهم ، بسهولة ، جماعةٌ عربية (أو مجتمع عربى) فى بلد عربى ما عامية مجتمع عربى آخر ، ولم تفهم جماعة عربية ما في بلد عربى ما عربيتها الفصيحة فإن الأمر عند مؤشر الخطر. وما يبدو هو أن الوضع في العالم العربى لايزال يقبل هذا الوصف بنسب متفاوتة عند كل جماعة أو مجتمع، بل إن التباعد بين الفصيحة والدارجة هو ما جعل أحد الباحثين[١٤]، فى ضوء مقاييس معينة، يعدهما لغتين مختلفتين لا مستويين من لغة واحدة. من هنا ، ومن وعينا بأن العامية تزاحم الفصيحة فى أكثر من صورة وأكثر من مكان وبخاصة في الإعلام المسموع والمرئى ، يأتى الإحساس بأن حالة الفصيحة والدارجة سواء كانتا مستويين للغة واحدة ، أم لغتين مختلفتين كما رأى أحد الباحثين ، تُعد إشكالية لغوية تتطلب علاجا جادا مخلصا قبل أن تختلط الأوراق ويصعب إعادة ترتيبها.

ومع أن بعض الباحثين يعد حالة «الفصحى والعامية» مشكلة إلا أنه لا يراهما لغتين مختلفتين وعنده أنه «مهما يكن من تفاوت اللهجات المحلية وحريتها فى الخروج على قيود الفصحى وقواعد اللغويين والنحاة ، فإنها لم تعْدُ أن تكون لهجات شعبية للعربية...

فحين نقول العامية المصرية ، أو الشامية والعراقية ، أو السودانية أو المغربية ، فليست إلا العربية على ألسنة هذه الأقطار»[١٥] .

ويبدو هذا أقرب إلى الصحة؛ فمهما كان الفرق بعيداً بين الفصيحة والعامية إلا أنه لايسوغ عدّهما لغتين مختلفتين يصعب رأب الصدع بينهما .

هوامش

١- علم اللغة العربية ص : ١٨ - هامش : ٦ . وانظر تعريف فيرجسون للازدواج اللغوي في مقالته المرفقة بهذا البحث .

٢- اللغة العربية وتحديات العصر ص : ٣٩ .

٣- شؤون لغوية ص : ٧٨ . وانظر أيضاً : لغتنا والحياة ص : ٩٧ ، ٩٩ ، ١٩٤ .

٤- فقه اللغة العربية وخصائصها ص : ١٤٥ .

٥- اللسان العربي ع : ٢٦ - ص : ٢٢ . وانظر أيضاً : تنمية اللغة العربية في العصر الحديث ص : ٤٠ .

٦- المعجم الوسيط مادة «زاجَ» .

٧- قضية التحول إلى الفصحى ص : ٢٩ .

٨- قضايا ومشكلات لغوية ص : ٨٢ ، ٨٥ .

٩- السابق ص : ٨٣ .

١٠- السابق ص : ٨٥ . وانظر أيضاً : لغتنا والحياة ص : ٩٣ .

١١- اللسانيات واللغة العربية ص : ٧٠ .

١٢- تنمية اللغة العربية فى العصر الحديث ص : ٣٤ .

١٣- اللغة العربية وتحديات العصر ص : ٣٩ - ٤٠ .

١٤- الطيب البكوش فى بحث عن : (إشكاليات الفصحى والدارجات) ضمن كتاب : من قضايا اللغة العربية المعاصرة ص : ١٧٣ . والمقاييس التى بنى عليها رأيه هي: المقياس الارتسامي (مثل نطق القاف أو تحويرها إلى حرف أو صوت آخر) ومقياس الفهم ، والمقياس النظامي (الحركات) والمقياس الصوتي، والمعجم، والدلالي، والصرفي، والنحوى، والتركيبي، والتعبيري. وهى مقاييس تختلف قوة وضعفاً فى دعمها لرأي الباحث لكني لا أعتقد أنها - رغم كمها - تدعم بقوة القول بأن الفصيحة والدارجة لغتان مختلفتان .

١٥- لغتنا والحياة ص : ٩٥ - ٩٦ وغيرهما .

(٢)

نظرة تاريخية

الازدواج اللغوى وَفق المفهوم الذى اخترته هو وجود مستويين فى اللغة العربية: مستوى الفصيحة ، ومستوى الدارجة أو مقابلاتها مثل العامية واللهجة (في مفهوم بعضهم ، مع أن الأفضل تخصيص مصطلح «اللهجة» لما يتعلق بالنطق) ، وما يتضمنه هذا المفهوم من تباعد بل صراع فى بعض المجالات والأذهان . فما تاريخ هذا الازدواج؟ أو متى وكيف ظهرت الدارجة بوصفها سبب هذا الازدواج ؟

بعض الباحثين يرى أن الدارجة سابقة على الفصيحة مثل محمود أحمد السيد فالعامية عنده أقدم فى حياة المجتمع العربى من الفصحى . ويبدو أنه يستند فى هذا على حالة اللهجات العربية القديمة التى جاء القرآن الكريم فوحدها - كما يقول - وإن بقي أثر لهذه اللهجات[١] . ويبدو أيضا أنه يعد تلك اللهجات عاميات قديمة لأنه فى سياق الحديث عن الدارجة والفصحى يقول : «ومن المعروف أن هذا الاختلاف فى اللهجات عميق الجذور، فمجتمعنا

العربى كان يعيش فى الجاهلية على شكل قبائل ، وكان لكل قبيلة لهجتها الخاصة بها ... ثم جاء القرآن الكريم فوحد هذه اللهجات جميعها ... بيد أنه لا يمكننا أن ننكر أن العامية جزء من حياة مجتمعنا العربى فى شتى أصقاعه ... وهى أقدم فى حياته من الفصحى»[٢] ونحن نتفق مع الباحث فى أنه كانت هناك لهجات متعددة فى الجاهلية ربما بعدد القبائل ، لكن هذه اللهجات لا تعد عاميات مثل عاميات اليوم مثقلة بأكثر من انحراف نوعى عن الفصيحة . ولعلها «مظهر من مظاهر النطق الشخصى يفصل المتكلم عن اللغة المشتركة»[٣] وقد كانت فى الجاهلية مظهراً نطقيا مميزا للقبيلة . لهجات الأمس - فى رأيى - مظاهر اختلاف في النطق من ناحية ، ومستويات لفصحى الأمس نفسها (على اختلاف فى نسب فصاحتها) من ناحية أخرى ؛ لأنها ملتزمة - فى الغالب- بالمستويات النحوية والصوتية والتركيبية والدلالية بصرف النظر عن ما يحصل فى هذه المستويات من اختلافات بينها وبين الفصحى الأم ، فهى اختلافات مشروعة أقرها العرب أنفسهم واللغويون فيما بعد ، وعدوها حجة وروي بها غير قليل من التراث

العربى، كما أنها اختلافات ربما نشأ بعضها وفق طبيعة الحديث اليومي المعتاد دون أن تبتعد هذه الطبيعة بهذه الاختلافات عن مستوى الفصحى. ولعله من هنا (كون لهجات الأمس مستويات لفصحاه) ذهب بعض الباحثين إلى «أن العربية فى بنائها التاريخى كانت ائتلافا من لهجات مختلفة»[٤] مثل نهاد الموسى ، ومثل أحمد عبدالغفور عطار فهو يرى - أيضا - أسبقية العامية من منطلق أن «الفصحى لغة أقرب إلى التمام انتهت إليه بعد تدرج فى مراحل التطور»[٥]. أما عائشة عبدالرحمن فترى أن «العربية التى وصلت إلينا فى تراث الجاهلية المعروفة لنا ... قد مرت فى قديمها بمراحل تهذيب وصقل وتصفية وانتقاء حتى بلغت مستوى عاليا من دقة الدلالة وإحكام الصياغة والتعبير»[٦] ولم تشر إلى أقدمية للعامية على الفصحى. أو أن هذا التهذيب والصقل كان لعامية تطورت إلى الفصحى . لكنها فى أحد المواضع تقول : «ولا مفر من التسليم بأنه قد كانت هناك (فى العصر الجاهلى) لغة عليا مشتركة ، ولغات محلية للحياة اليومية ، خضوعا للطبيعة الاجتماعية للحياة اللغوية التى تقضى بوجود لغة للفن والثقافة

والفكر ، غير اللغة المستعملة فى الحياة اليومية»[٧] فهل تَعني «بلغات محلية للحياة اليومية» مستوى العامية ؟ لا أظن هذا . فالأرجح أنها تعنى باللغات المحلية تلك اللهجات القبائلية لا نحواً من العامية بدليل قولها: «فالذى بين لغة قريش ، ولغات القبائل العربية الأخرى ، لم يكن ابتلاعا ولا اندماج لغات فى واحدة قد التهمتها وتغذت بها ، وإنما كان على ما نقل «ابن فارس» من قول أئمة علماء اللغة ، نوعا من الاصطفاء اختارت به اللغة العليا ما رضيته من لغات القبائل»[٨] . لا نطمئن ، على هذا، أن تُعد لهجات القبائل القديمة عاميات للفصيحة وإنما مظاهر اختلاف في النطق ومستويات لها - كما قلت - وللأسباب التى أشرت إليها . ربما كان للعرب قبل الإسلام دارجة أو دارجات مثل دارجاتنا ولم تحفظ . لكننا نتساءل : إن كان لهم دارجات فأين أدبها الشعبى ؟ لم لم يُروَ ويتناقل؟ وهذا أيضا مما يشكك فى وجود لغة محلية قديمة مثل محليتنا . ما لم يكن عدم الرواية والتناقل استخفافا بهذا اللون وعدم اعتداد به .

أحمد عبدالغفور عطار وعائشة عبدالرحمن يتفقان على مراحل

تطورية للفصحى. وهذا منطقى فلا نتصور أن تظهر العربية الفصحى هكذا كاملة ذات مستوى عال من الدقة والإحكام فى الدلالة والصياغة والتعبير دون مراحل وتدرج . والمرجح أن ذلك الصقل والتهذيب والانتقاء المتدرج للعربية هو - بمعنى آخر - تكوُّنها وتبلورها وتلمسها لحالة تستقر عليها بعد تفرعها عن اللغة السامية الأم . ومن المحتمل أن تكون العربية في حالتها البعيدة يوم تفرعها مع غيرها عن السامية وقبل تطورها بالصقل والتهذيب والانتقاء هى هذه العامية التى عناها أحمد عبدالغفور عطار بالأسبقية على الفصحى ، لكنها ليست بالتأكيد نحواً من هذه العامية التى تُكَوِّن المستوى الآخر للازدواجية اللغوية التى نشكو منها الآن . فتلك العامية - إذا صحت هذه الاحتمالية - كانت وحدها بدون فصحى ، ومن هنا فليست هناك ازدواجية .

العامية التى تعنينا، وتسببت حقا (ولا تزال تتسبب) في الازدواج اللغوى هى عامية نشأت من اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأخرى ، بل هى انحراف عن الفصيحة. وابن خلدون هو من هؤلاء الذين سجلوا هذا الانحراف ومظاهره بسبب ذلك الاختلاط

وتأثيره وبخاصة اختلاط ما بعد الإسلام ربما لأن اختلاط ما قبله لم يكن ذا تأثير على فصاحة العربية ومكانتها .

وأول انحراف سجله هو الانحراف فى المستوى النحوي يوضحه بقوله عن اللغة ووضعها بعد الاختلاط : «إنما هى (اللغة) ملكة فى ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا ، فلما جاء الإسلام وفارقوا (العرب) الحجاز لطلب الملك الذي كان فى أيدي الأمم والدول وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التى للمستعربين والسمع أبو الملكات اللسانية ففسدت بما ألقى إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع . وخشى أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا ويطول العهد بها فينغلق القرآن والحديث على المفهوم فاستنبطوا من مجارى كلامهم قوانين لتلك الملكة مطّردة شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع، ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسميته إعرابا وتسمية الموجب لذلك التغير عاملا وأمثال ذلك

، وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو»[٩] .

هذا القول يؤكد تنبه العرب إلى هذا الانحراف اللغوى الذى سارعوا إلى علاجه بقواعد النحو التى وضعها أبو الأسود الدؤلى . فكما يروى : جاء أبو الأسود الدؤلى إلى زياد بالبصرة ، فقال : «إنى أرى العرب قد خالطت الأعاجم وتغيرت الألسنة ، أفتأذن لى أن أضع للعرب كلاما يعرفون أو يقيمون به كلامهم ؟ فقال : لا ، فجاء رجل إلى زياد فقال: أصلح الله الأمير ، توفى أبانا وترك بنوناً . فقال زياد : توفى أبانا وترك بنونا ! ادع لى أباالأسود ، فقال : ضع للناس الذى نهيتك أن تضع لهم»[١٠] . وهذا الانحراف يعد أول خطوة واضحة تخطوها العامية فى طريق تأصلها.

أما الانحراف الثانى ففى المستوى الدلالى للألفاظ . ويوضحه (ابن خلدون) بقوله: «هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية ، وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربى في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب واستُنبطت القوانين لحفظها كما

قلناه ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ فاستعمل كثير من كلام العرب فى غير موضوعه عندهم ميلا مع هجنة المستعربين فى اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين وكان سابق الحلبة فى ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدى ألف فيها كتاب العين» (١١) وهذا القول أيضا يؤكد تنبه العرب إلى هذا الانحراف الدلالي الذى شمروا له بتأليف المعاجم ، وكان خطوة أخرى للعامية نحو تشكيلها للازدواج اللغوى .

وأما الثالث ففى المستوى التركيبى الذى نظن أنه تكوّن نتيجة تفاعل بين الانحراف النحوى والصوتى (أو النطقي) يقول ابن خلدون : «إنه لما فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم ، وسبب فسادها أن الناشئ من الجيل صار يسمع فى العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التى كانت للعرب فيعبِّر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ، ويسمع كيفيات

العرب أيضا فاختلط عليه الأمر وأخذ من هذه وهـذه فاستـــحدث ملكة وكانت ناقصــــة عن الأولى وهذا معنى فســـاد اللسان العربى»[١٢] فهذه الكيفيات الكلامية المخالفة لكيفيات كلام العرب ، والأخرى الناشئة منها ومن كيفيات كلام العرب تُجسد هذا الانحراف التركيبى .

هذه ثلاثة انحرافات حصلت في اللغة العربية . وهى في الوقت نفسه أبرز مظاهر الدارجة التى تفصلها عن الفصيحة على اختلاف فى نسب بروز هذه المظاهر أحدها عن الآخر فى الدارجة وتمكنها منها . وبهذه الانحرافات تأصلت الدارجة مستوىً تبتعد به شيئا فشيئا عن العربية المشتركة ، إذ يبدو أن الدارجة سارت فى طريق التأصل والاكتمال حتى حصل لها هذا أو قريب منه ابتداء من القرن الرابع الهجرى حين كثر اللحن وفشا وعظم كما يصور صاحب كتاب «نقد النثر» بقوله : «وربما اغتفر فى دهرنا هذا اللحن والخطأ للانسان فى كلامه لكثرة اللحن فى الناس وأنه قد فشا وعظم وفسدت الفصاحة بمخالطة العرب الأعاجم والأقباط وسائر الأجناس . فأما في الكتاب فغير مغتفر له ذلك»[١٣] . بل

إنه فى هذا القرن أصبح لكل واحد من الأقاليم العربية فى العراق والشام ومصر وبلاد المغرب والأندلس لغة محلية أو لهجة محلية متميزة كما يروى المقدسي (ت ٣٧٥هـ) في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»[١٤] .

أما ابن خلدون فيشير إلى أن ملكة اللغة أيام الرشيد قد ذهبت من العرب[١٥] . وذهابها يعنى استحكام هذه الانحرافات . واستحكام هذه الانحرافات يعنى نشوء العامية . ونشوء العامية يعنى نشوء الازدواجية اللغوية أو ثنائية الفصحى والعامية (كما يسميها بعضهم) التى يرجح يوهان فك Johan Fock «أنها نشأت منذ نشوء العامية نفسها ، أى في عصر الفتوحات الإسلامية الأولى ، بعد اختلاط العرب بالأعاجم ، لكن هذه العامية - يقول فك- لم تتميز عن الفصحى بشكلها الواضح، إلا بعد فترة من الزمن استطاعت خلالها أن تتسم ببعض السمات في المادة الصوتية ، وصوغ القوالب ، وتركيب الجمل ، والقواعد النحوية ، والمادة اللغوية ، وطرائق التعبير»[١٦] . وهذه التميزات التى ذكرها «فك» وتميزت بها العامية عن الفصحى تدريجيا هى هذه

الانحرافات الثلاثة نفسها التى سجلها ابن خلدون فى مقدمته بسبب اختلاط العرب بغيرهم من أحد وجهي المسألة ، أما وجهها الآخر فهو انتشار اللغة العربية وخروجها عن بيئتها وتعرضها لظروف متنوعة جديدة .

ما سجله لنا ابن خلدون هو الخطوات الأولى الرئيسة لازدواجية العربية . ثم في أعقاب هذا مر على العرب حين من الزمن ضعفوا فيه ، وضعفت معهم لغتهم واستحكم الازدواج حتى ظهر على السطح واحتد واشتد قضيةً عربية -لا لغوية فحسب- مع الدعوة إلى التحرر وحروبه ومناهضة الاستعمار في أوائل القرن العشرين ومع جهود التطور وتدعيم الاستقلال فى النصف الثاني منه أي في يقظة إسلامية عروبية واعية . لكن القضية لا تزال. وصار الازدواج يتغذى من الداخل ، من الأسرة العربية والمجتمع العربى أنفسهما بدلا من عناصر أجنبية .

هوامش

١- شؤون لغوية ص : ٧٨ .

٢- المصدر السابق والصفحة .

٣- اللسان العربي ع : ٣٥ - ص : ٧٥ .

٤- قضية التحول إلى الفصحى ص : ٢٨ .

٥- قضايا ومشكلات لغوية ص : ٨٤ .

٦- لغتنا والحياة ص : ٤٣ .

٧- السابق ص : ٥٠ .

٨- السابق والصفحة .

٩- المقدمة ص : ٥٤٦ .

١٠- عن : فصول في فقه العربية ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .

١١- المقدمة ص ٥٤٨ .

١٢- السابق ص : ٥٥٥ .

١٣- ص : ١٤٣ من الكتاب المذكور المنسوب لقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) كما نسب إلى ابن وهب أبي الحسن إسحاق بن إبراهيم بن سلمان (ت ٣٣٥هـ) .

١٤- عن : محاضرات عن اللغة العربية المشتركة ص : ٣٦ .

١٥- انظر : المقدمة ص : ٥٤٧ .

١٦- فقه اللغة العربية وخصائصها ص : ١٤٧ .

(٣)

الازدواج اللغوى

التأثير فيه وأثره

خلال النظرة التاريخية إلى الازدواج اللغوى أدركنا -فيما أدركنا- كيف وُجد الازدواج بسبب المجتمع . صحيح أنه كان مجتمعا غير المجتمع العربى ، لكن هذا لا يعنى أن العنصر الأجنبى هو السبب ، وبدونه لا تكون ازدواجية لغوية سابقا ولاحقا ، لأن الازدواجية قد تنشأ من أمية تصيب المجتمع وتحل به . والمجتمع الأجنبي فيما يتعلق بالفصيحة والدارجة هو السبب الأول. لكن المسألة بعد اندياحها وانتشارها كانت تتأثر بالأسرة العربية والمجتمع العربى أى بأهل اللغة أنفسهم حين صارت الدارجة قارّة بينهم، وحين تدنى المستوى الثقافى والمعرفي وانحسرت المعرفة اللغوية، وتدنى الوعي اللغوي للفصيحة والانتماءُ إليها ، أي صار المجتمع أحد أدواء العربية بعد أن كان أحد أدويتها . فى هذا الحين أصبحت العامية لغة متوارثة يرثها أولاد عن آباء وجيل عن جيل . إذا كان الأبوان يتحدثان بالدارجة أمام أطفالهما فالطبَعى أن ينشأ الأطفال يتحدثون بها . وإذا كان المجتمع يستعمل الدارجة

فى حياته وشؤونه فليس للنشئ أن يخرج عن هذا المسار . الطفل فى العالم العربى يرضع العامية كما يرضع غذاءه من أمه ، يسمعها من أمه وأبيه وأخواته وإخوته وأقربائه . والطفل فى العالم العربى ينمو وينضج محاطا بالدارجة من كل جانب وفى كل مكان. فالدارجة لا تزايله حتى في الفصل الدراسى يسمعها إما من زميله وإما من مدرسه. « العامية التى يكتسبها الناشئة فى حجور أمهاتهم - كما يقول نهاد الموسى - هى علة الازدواجية الأولى»[1] وإذا خرج هؤلاء من حجور الأمهات تلقفهم الإعلام بالدارجة فى الإذاعة والتلفاز عن طريق المسلسلات والمقابلات والحوارات والبرامج ، ثم تلقفهم الشارع والسوق ومكان العمل أى المجتمع بمؤسساته ومرافق خدماته فرسخ ما اكتسبوه من لغة فى الصغر . وهؤلاء يضعون - فى الغالب - ثقتهم فى كثير من هذه الأشياء ويصدقونها ويتأثرون بها ، ومن هنا تكتسب الدارجة مشروعيتها أو مؤشرات هذه المشروعية على الأقل . وهذا موضع الخطورة لأن الدارجة من هذه الرؤية تزداد قابليتها لتمكنٍ أكثر عمقا وأبعد نفوذا . هكذا يكون تأثير الأسرة والمجتمع فى ازدواجية اللغة . ينقلان العامية إلى الناشئة ويُكسبانهم إياها .

وإذا ما توجهوا إلى المدرسة واجهتهم الفصيحة يتعلمونها أصواتا وتراكيب وقواعد وتعبيرات كأنها لغة أجنبية . ومع بداية تعلمهم لها تبدأ عندهم الازدواجية ومع بدايتها يبدأ فعلها وأثرها فى مسيرتهم العلمية والحياتية إلى جانب ما لها من آثار أخرى على اللغة والمجتمع نأمل أن تتضح مما يلى :

نفهم الازدواج اللغوى الآن على أنه وجود لغة فصيحة مكتوبة للثقافة والفكر والعلم ، وأخرى عامية للتعامل اليومى بين الناس . ونفهم أن سبب إطلاق هذا المصطلح هو مابين هاتين اللغتين من تباعد وإلا لكان الأمر طبعيا . ولأن الأمر خرج عن مسار الطبعية فالمتوقع أن يفرز الازدواج آثارا سلبية على الفصيحة نفسها وعلى المجتمع وثقافته وحضارته :

١- وأسبق ما يتبادر إلى الذهن من هذه الآثار هو دور الازدواج اللغوي فى ضعف المستوى اللغوي . فالعامية كما قلت سابقا تُكتسب قبل الفصيحة التى يتعلمها الطفل تعلما بعد أن تكون العامية قد شكلت البرنامج اللغوى في دماغه[٢] ، أى بعد أن كونت الإطار أو المنوال (أو السياق اللغوي) الذى يهتدى به فى تركيب الجمل وصياغة العبارات الخاصة

به . إذا أدركنا هذا ندرك معه كيف تؤثر الدارجة على الفصيحة تأثيرا سلبيا عندما يشرع في تعلمها . ذلك أن هذه العامية بظلال تعبيراتها وتراكيبها وأصواتها تتسبب فى اختلاط الأمر على المتعلم فينشأ تعثر واضح فى تعلمه العربية الفصيحة ، واكتسابه مهاراتها فما «يبنيه مدرس اللغة العربية - كما يقول محمود أحمد السيد - معرض للهدم بسبب استشراء العامية فى مرافـــق الحياة»[٣] هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن هذه العامية التى اكتسبها الطفل ونشأ عليها وكونت «لغته الأم» تجعله ، بعد أن يبدأ فى تعلم الفصحى، «يسقط - كما يقول نهاد الموسى - فى وهم مضلل ، إذ يهيئ له القدر المشترك الذى يلمحه بين الفصحى والعامية أنه مستغن بما يعرف ، فتفتر همته فى تحصيل العلم بالعربية ، ويتعثر فى استعمالها بعد ذلك تعثر الضعف المشهورة مظاهره»[٤] وشكري فيصل لا يكتفي بإعطاء الازدواج اللغوى مجرد أهمية فى مشكلتنا اللغوية ، فعنده أن «رأس المشكلة يتمثل فى الصراع بين العامية والفصحى.. اللغة التى يتعلمها الطالب العربى هى غير

اللغة التى يسمعها فى البيت أو الطريق .. وما يسمعه من معلم العربية غير الذى يسمعه من معلم الجغرافية .. بل إن معلم اللغة العربية يعلمه أشياء ويستخدم أشياء غيرها .. كل شئ حول العربية فى الفصل ، مضاد لها فى البيت والمدرسة والشارع وكأنما هناك هذه القربة المقطوعة تملأ من أعلاها فينهمر الماء من جوانبها المهترئة والممزقة»[٥] .

لكن عائشة عبدالرحمن «بنت الشاطئ» لا ترى لظاهرة الازدواج اللغوى تبعة فيما نعانى من أزمة لغوية . «إذ لو كان هذا الازدواج هو عقدة الأزمة - كما تسوّغ - لما كان هناك وجه للشكوى من فساد العربية على ألسنة المتعلمين وأقلامهم، وقد تعلموا من دروس العربية ما يكفى لتقويم ألسنتهم . وكل اللغات تعرف هذا الوضع الثنائى [تقصد مافضلت تسميته بالازدواجي] ، تختلف فيه لغة البيت والسوق عن لغة المدرسة والجامعة، والفكر والأدب .. وفقهاء العربية منا يتعاملون فى حياتهم اليومية باللغة العامية ، دون أن تجور على أصالتهم فى الفصحى أو تحجب عنهم أسرارها فى النطق والتعبير أو تهبط بمستواهم

فى الأداء والبيان »[٦]

هذا هو رأى عائشة عبدالرحمن وهذا هو تعليلها لما ذهبت إليه . وأحب أن أوضح أننا حين نربط بين الازدواج وضعف المستوى اللغوى لا نعنى أنه السبب الوحيد لهذا الضعف . نحن نعطيه أهمية فقط . نرى أنه أسهم فى أزمة اللغة العربية بقدر ما وبكيفية ما. والباحثون الذين أوردت آراءهم يرون هذا أيضا ، فهم لا يلقون بالتبعة كلها فيما نعانى من أزمتنا اللغوية ، على ظاهرة الازدواج اللغوى كما تقرر عائشة عبدالرحمن[٧] . هذا عن مبدأ الربط بين الازدواج وضعف المستوى اللغوى . أما عن تسويغاتها لنفى هذا الربط فالأفضل تناولها واحدا بعد الآخر لمناقشتها. والتسويغ الأول هو قولها بأنه «لو كان هذا الازدواج هو عقدة الأزمة، لما كان هناك وجه للشكوى من فساد العربية على ألسنة المتعلمين وأقلامهم ، وقد تعلموا من دروس العربية ما يكفى لتقويم ألسنتهم» فهى تتساءل كيف يكون الازدواج عقدة الأزمة والشكوى قائمة من فساد لغة المتعلمين الذين تعلموا من دروسها ما يكفى ؟! التساؤل -

فيما يبدو- لا يخلو من غموض. ومهما يكن فالشكوى قائمة من ضعف المستوى اللغوى عند المتعلمين رغم أنهم تعلموا من العربية ما نفترض كفايته فى الأحوال الطبعية، لكن الأحوال غير طبعية بسبب وجود هذا الازدواج الذى قامت الشكوى منه أيضا بسبب دوره في هذا الضعف. وإشكالية الفصيحة والعامية على كل حال قضية معقدة يتقاطع فى دائرتها أكثر من شئ مثل الفصيحة نفسها، والعامية، وضعف المستوى اللغوى، والازدواج اللغوى ، وما تفرزه هذه الأشياء من إشكاليات فرعية . وما يبدو أكثر تعقيداً وتداخلا هو العلاقة بين الازدواج اللغوى والعامية حتى لتبدو علاقة جدلية بأخذ أحدهما من الآخر واغتذائه منه. والتسويغ الثانى قولها بأن «كل اللغات تعرف هذا الوضع الثنائى تختلف فيه لغة البيت والسوق عن لغة المدرسة والجامعة، والفكر والأدب» ونقول نعم. كل اللغات تعرف فرقا بين لغة الكتاب ولغة الخطاب ولابد أن تعرفه . وهو شئ طبعى. لكن هذا الفرق إذا كَوَّن فجوة بين اللغتين مثل ما بين العربية الفصيحة ودارجتها من منظور عام فانه غير

طبعى ويعد إشكالية تحمل معها مخاطرها.

أما الثالث فرأيها بأن «فقهاء العربية منا ، يتعاملون فى حياتهم اليومية باللغة العامية ، دون أن تجور على أصالتهم فى الفصحى أو تحجب عنهم أسرارها في النطق والتعبير ، أو تهبط بمستواهم فى الأداء والبيان» ونجيب بأن العامية لم تجُرْ على أصالة هؤلاء فى الفصحى لأنهم فقهاء فى العربية تشبعوا بها تعلما وتعليما وكتابة ، وتحدثا فى مواقف معينة . بعبارة أخرى لأنها تَخصصهم . فهل يتخصص كل أبنائنا فى العربية حتى لا تجور العامية ؟! .

وهناك تسويغ رابع هو ما عرفته «العربية من ظاهرة الثنائية اللغوية من قديم جاهليتها المعروفة لنا : فى اللغة العالية المشتركة للشعر والنثر الفنى ، وفى لغات القبائل يتعاملون بها فى نطاق كل قبيلة»(٨) لكن لغات القبائل (اللهجات) تلك لا تبتعد كثيرا عن الفصيحة الأم ، إذ هى - كما رجحت فى مكان سابق - أقرب إلى كونها مستويات للفصيحة ومظاهر لاختلافات نطقية من كونها عاميات مثل عامياتنا اليوم . ولأن عائشة عبدالرحمن لا ترى فى

الازدواج اللغوى سببا للأزمة اللغوية ، كما تسميها، فهى تلقي بالتبعة على التعليم الذى يُفترض أن «يصل التلميذَ بالفصحى ، ويُمكِّنه من الاقتدار عليها»[٩] لكننا نعود فنقول: إن الازدواج اللغوى يعوق بكيفية ما وبقدر ما مسيرة هذا التعليم .

٢- يلفت الانتباه أحيانا ، عند بعض المتعلمين الذين تضطرهم بعض المواقف ، تعبيرات تتلمس الفصيحة بصعوبة بالغة وبطريقة مضحكة مؤسفة فى الوقت نفسه. والسامع المدقق لهذه التعبيرات يدرك إلى أي مدى كان صاحبها محاصَرا بالعامية المكتسبة وبالفصيحة المتعلمة . كما يدرك أثر الحيرة بين اللغتين من خلال هذه التعبيرات في تركيبها وفى نطقها وفى إعرابها . هذه التعبيرات فى الغالب صيغت حسب إطار العامية المكتسبة ، لكن الموقف يرغم المتحدث فيتلمس الفصيحة متصنعا دون معرفة واعية بقوانينها فيختلط عليه الأمر فتضطرب العبارة دليلا على اضطراب الذهن وبلبلته . وهذا الاضطراب شبيه بهذه «اللجلجة اللغوية» أو الفكرية التى حمّل شكرى فيصل الصراع بين

الفصحى والعامية مسئوليتها . ويوضح هذه اللجلجة بقوله : «يترك هذا الانحراف (يَعدُّ العاميةَ انحرافا لغويا) آثاره الكبيرة فى العقول وعلى الألسنة .. ذلك أن العقل حين يأخذ يصوغ أفكاره أو مفاهيمه ، ويباشر التعبير عنها ، يواجه هذه الصعوبات التعبيرية حين تتحير الألسنة فى الوجهة التى تتجه نحوها ، فى البنى التنظيمية التى تأخذها، فى القوانين النحوية التى تلتزمها .. ومثل هذه اللجلجة ترتد مرة أخرى فتفسد التصور الفكرى وتورثه نوعا من اللجلجة الفكرية ، وينتهى الأمر إلى تغلب إحدى المنظومتين اللغويتين : الفصحى أو اللهجة»[١٠] هذا ما يرى شكرى فيصل الأمرَ ينتهى إليه لكنه ليس هذا فحسب ، فهو ينتهى أحيانا إلى منظومة لغوية لا هى بالفصيحة ولا هى بالعامية ولا هى مزيج مهذب بينهما . ينتهى إلى لغة ركيكة غير واضحة المعالم تكاد تكون ممسوخة اختلط الأمر على صاحبها فاختلطت . فهذا أثر آخر من آثار الازدواج اللغوى .

٣- وفى الازدواجية عبء مادى وزمنى ونفسي ، ذلك أننا ننفق

فى تعلم الفصيحة وتعليمها مادة ووقتا أكثر من المطلوب لوكانت حالنا اللغوية تسير على نحوها السليم . ويصاحب ذلك معاناة نفسية من المعلم والمتعلم معا ، ذاك بما يبنيه فى المتعلم بدروس اللغة ثم يهدمه غيره ، وهذا بما يجد من حيرة واضطراب يظهر - كما قلنا - فى تعبيره . وقد نقل لنا نهاد الموسى محاولة حفنى ناصف، منذ ثمانين سنة ، تجسيمَ الخسارة التى يتحملها الوطن من جراء هذه الطاقة المبددة . وهى قوله (ناصف) : «وترى الطفل يتعلم العامية فى أقل من خمس سنين ولا يتعلم الفصحى فى أقل من عشر . والسبب فى ذلك ظاهر ، وهو أنه فى أول أمره لا يسمع غير العامية ولا يتكلم بغيرها ، فهو أينما سار وحيثما ذهب مشتغل بها فترسخ فى ذهنه رسوخ الفرنسية فى أذهان أطفال الفرنسيين ، والانجليزية فى أذهان أطفال الانجليز ، وليس الحال كذلك فى إبان تعلمه لغة الكتابة . ولو فرضنا صبيا نشأ فى بلد يتكلم أهله بالعربية الفصحى بالسليقة ، وبعد سن مخصوص يتعلمون العامية ، ويستعملونها فى الكتابة فقط لانعكس معه الحال ، وتعلم

الفصحى فى أقل من خمس سنين ، ولم يتعلم العامية فى أقل من عشر ، فليس فى طبيعة اللسان العربى شئ من الصعوبة ، وإنما هى طريقة التلقين وبيئة التعليم»[١١] كما ينقل لنا إميل بديع يعقوب عن أنيس فريحه رأيه بأن العربى يصرف فى تعلم لغته زمنا أطول من الزمن الذى يصرفه الغربى فى تعلم لغته ، وأن هذا من الأمور التى تعود بشكل أساسي إلى اختلاف الفصحى والعامية[١٢].

٤- العالم العربى بمواقعه الجغرافية المهمة للعالم ، وسوقه الاقتصادية المفتوحة له ، وبما فيه من ثروات طبعية ومعالم أثرية حري أن يستمر فى جذب الأجنبى مستثمرا وسائحا وباحثا كما جذبه مستعمراً . وهذا الوضع يُخطر فى بال هذا الاجنبى تعلم العربية ، وهذه فرصة يجدر بالعالم العربى أن يقتنصها فينشر لغته مثلما فعل الآخرون ويفعلون . وربما فكر المخلصون فى هذا لكن الحصيلة المنظورة لانتشار العربية مؤسفة . والازدواجية - فيما يبدو - هى أقوى الأسباب ، أو كما يقول - نهاد الموسى - «هى الجدار الحائل بيننا وبين أمانينا فى نشر العربية فى العالمين»[١٣]

لأن الراغب فى تعلم العربية من الأجانب لا يريد لغة للكتابة والقراءة فحسب ، وإنما لغة للتحادث أيضا ، لغة يتفاهم بها ويتواصل مع الناس عن طريقها ، ويقضى بها حاجاته اليومية . لكن عندنا لغة فصيحة وأخرى عامية بل عاميات

فهل يتعلم الفصيحة وهي لا تيسر له سوى القراءة والكتابة والتحدث في المواقف الخاصة بها ، أما فى شؤونه اليومية فانها لا تسعفه ولا تنجده لأن أهلها لا يتحدثون بها؟ أم يتعلم العامية ؟ لكن أى عامية يختار ؟ فهى عاميات بعدد مناطق العالم العربى. والغالب أن يصاب راغب العربية الأجنبى بإحباط نفسى وصدود عن تعلم العربية ، لأنه إن تعلم الفصيحة عانى فى تواصله مع الناس، وإن تعلم دارجة منطقةٍ ما ، عانى فى تواصله مع أهل المنطقة الأخرى . وعانى فى القراءة بالفصيحة والكتابة بها والتواصل بواسطتها فى المواقف التى تستدعى استعمالها .

٥- لأن اللغة أداة الإبداع الأدبي شعراً أو نثراً فلا نتوقع من الأديب أن يبدع إلا إذا أتقن لغته. لكنْ لأن الشعر في أحد

أبعاده الجوهرية تعامل خاص مع اللغة فلا نتوقع من الشاعر بخاصة أن يبدع إلا إذا أتقن اللغة بوصفها أداة إبداع أدبي أولاً، وذات خصوصية تعاملية شعرية ثانياً .ولغة الإبداع للشعر العربي الفصيح هي العربية الفصيحة لكن الشاعر العربي، بسبب هذه الازدواجية اللغوية ، لايكتسبها في سني حياته الأولى وإنما يتعلمها لاحقاً في المدرسة، أي بعد أن يكون ذهنه ودماغه (كما ذكرت سابقا) تبرمجا على مستوى لغوي آخر هو العامية وتكيّفا وَفق طبيعتها وكيفيتها، ولهذا فالشاعر الموهوب غير المتعلم أو المتعلم تعلماً غير كافٍ ، إذا ماقُدِّر لموهبته الشعرية الظهور، سيقول شعراً عامياً أو فصيحاً ساذجاً أي إن موهبته الشعرية في مجال الشعر الفصيح الرفيع ستنطمر . وربما بهذا نخسر شاعراً فحلا يخدم العربية وأهلها. والأمر هنا، بسبب هذه العامية المتحكمة ، ليس إعاقة للإبداع فقط وإنما قتل له .

وإذَنْ فلغة الشاعر العربي الفصيحة التي يبدع بها ليست اللغة الأصلية التي نشأ عليها منذ صغره ، هي لغة متعلمة في نحوها وصرفها ومعجمها ونطقها وطريقة

تركيبها، ولا يبدو أن الإبداع الشعري بلغة متعلمة في جل جوانبها الجوهرية سيرقى إلى مستوى الإبداع بلغة عربية سليمة ينشأ عليها الإنسان ويشب لأن هذا يعني خبرة باللغة وإدراكاً لطبيعتها ووعياً لأنظمتها، وتمهيداً لترسخها وزيادة تأصلها بالتعلم، ومقدمةً لكيفية التعامل معها وبها في الإبداع الشعري.

معايشة اللغة منذ الصغر يكشف الكثير من أسرارها وملامح شخصيتها. وإذا انكشف هذا للشاعر المبدع تهيأت له أسباب السيطرة على اللغة واستثمار طاقاتها الجمالية وقيمها الفنية بل اعتصار هذه الطاقات وهذه القيم وربما توليدها حتى ليختلط علينا الأمر في الأشعار الراقية فنتساءل عن أيهما صنع الآخر: أهي اللغة صنعتْ هذه الأشعار وشكلتها، أم هو الشعر صار مصنعاً للغة ينتجها بشكل مختلف عن ماعهدناها عليه. والمسألة فيما يبدو لاتخلو من تعقيد وغرابة يزيداننا إيمانا بأهمية معايشة اللغة وممارستها منذ الصغر إلى حد تَمكُّننا منها وتَمكُّنها منا فتصبح حالة قارّة حاضرة باستمرار. وإذا كانت الرموز

اللغوية وَفْق علماء النفس المحدثين « هي أرقى أنواع الرموز وأقدرها على نقل المدركات من مجال الغموض اللاشعوري إلى حيز الوضوح الشعوري» (١٤) فإن معايشة هذه الرموز اللغوية منذ الصغر وعلى نحو فطري يعطي نتائج أفضل في مجال التعبير الشعري. وستظل الرموز اللغوية تقول شيئاً كثيراً وتهمس بشيء كثير لكننا لن نحسن الإصغاء إلى ماتقول ولن ندرك ماتهمس به إلا إذا مر على تعاملنا معها زمن تُشكِّل الطفولة بعضه. ويبدو أنه كلما كانت خبرتنا بهذه الرموز بمقدار المسافة الزمنية لخبراتنا وتجاربنا في الحياة استطعنا أن نحملها (الرموز) من المعاني والدلالات ماهو أكثر ثراء وعمقاً وإمتاعا . الشـــاعر محتاج إلى قوة السحر الكامنة في اللغة وجرسها، والمعايشة المبكرة للغة تمنحه شيئاً من هذه القوة. ويبدو أنه لاحدود دقيقة لدلالات كثير من ألفاظ اللغة بسبب مايحدث لهذه الدلالات من تلون وثراء وفقر وغموض ومايكتنف معانيها من ظلال بسبب الظروف المختلفة التي تتعرض لها مثل الزمان والمكان والسياق والقارئ أو السامع. وهذا مما يعطي

أهمية لأن يعايش الشاعر اللغة ويتمرس بها. لكن المعايشة والوعي المبكرين للغة وطبيعتها وأسرارها لايتيسران للموهبة الشعرية في ظل الازدواج اللغوي الذي يقف واحدا من المؤشرات القوية لظاهرة الضعف اللغوي بل إنه يسهم في تكريسها. ومن هنا يمكن القول إنه والضعف اللغوي المرتبط به، أحد الأسباب التي تقف وراء تراجع مكانة الشعر وقلة فحوله؛ فالضعيفون لغوياً (وهم كثيرون في هذا العصر) لايتطلعون إلى كتابة الشعر الفصيح لأنهم لايمتلكون أداته (اللغة) وأسرارها فكأن امتلاك العربية الفصيحة، والتمكن منها ، والوقوف على أسرارها، وخبرة طبيعتها واحد من محرضات الشعر وبواعثه وإلا خَبا هذا الشعر وربما هان على الناس كما جاء في إحدى إضاءات حازم القرطاجني: « وإنما هان الشعر على الناس هذا الهون لعجمة ألسنتهم واختلال طباعهم، فغابت عنهم أسرار الكلام وبدائعه المحركة جملة فصرفوا النقص إلى الصنعة، والنقص بالحقيقة راجع إليهم وموجود فيهم؛ ولأن طرق الكلام اشتبهت عليهم أيضاً».(١٥)

وطرق الكلام التي اشتبهت على الناس (كما يقول

القرطاجني) هي طرق التعامل مع اللغة ساعة الإبداع الشعري. وهي هذه الأساليب التي ركز عليها ابن خلدون في حديثه عن « صناعة الشعر ووجه تعلمه» وحددها بأنها « هيئة ترسخ في النفس من تتبع التركيب في شعر العرب لجريانها على اللسان حتى تستحكم صورتها فيستفيد بها العملَ على مثالها والاحتذاء بها في كل تركيب من الشعر»[١٦] فكلام ابن خلدون يدعم أهمية التمرس باللغة وممارستها لامجرد معرفتها - للإبداع الشعري . ويبدو أنه مؤمن تماماً بأهمية هذه الممارسة وهذا التمرس قبل الإبداع الأدبي . (وربما يكون إيمانه بهذه الأهمية هو ماجعله ينتصر للألفاظ في قضية اللفظ والمعنى) فهو يقول : « إعلم أن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظ لا في المعاني، وإنما المعاني تبع لها وهي أصل ، فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر إنما يحاولها في الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب ليكثر استعماله وجريه على لسانه حتى تستقر له الملكة في لسان مضر ويتخلص من العجمة التي ربي عليها في جيله ويفرض نفسه مثل وليد

نشأ في جيل العرب. ولُقِّن لغتهم كما يُلقَّنها الصبي حتى يصير كأنه واحد منهم في لسانهم »[١٧] لكن الازدواج اللغوي بما فيه من عامية متحكمة تبعدنا عن الفصيحة يحول بيننا وبين ممارسة اللغة والتمرس بها. وعلى هذا فالازدواج اللغوي بكل أبعاده أحد عوائق الإبداع الشعري أو تأخيره.
ربما يقول أحدنا شعرا في مرحلة مبكرة لكنه لايرقى إلى مستوى الشعر الجيد، ليس لأنه شعر بدايات والبدايات بطبيعتها أقل مستوى مما بعدها، ليس هذا فحسْب هو السبب وإنما لأن مانقوله هو في أحد جوانبه بدايات تعامل مع اللغة؛ فشعر المرحلة الأولى للشاعر مثل ماهو دربة ومران على الشعر ، هو دربة ومران على اللغة. هو ترسيخ وتأصيل لهذه اللغة التي تعلمها حتى ترقى إلى مستوى لغة يبدع بها بوصفها لغة تأصلت بالتعلم والدربة. ويبدو أنه كلما تأخر اكتشاف العربية الفصيحة وجمالياتها بسبب تأخر اكتسابها - تأخر قول الشعر فضلاً عن إبداعه. والاكتساب الذي أعنيه هو الاكتساب المبكر بالتلقي والسماع والمشافهة في البيت وغيره ومع الأهل وغيرهم ثم استمرار هذا

الاكتساب في بيئةٍ ثقافة لغوية مثلما كان الأمر في العصر الجاهلي وفي الأزمان العربية القريبة منه التالية له. فشعراء تلك العصور لم يتعلموا اللغة في مدرسة وإنما اكتسبوها بالسماع والممارسة فكان هذا أحد الأسباب القوية لإبداعهم. ولهذا أفترض ، في الغالب ، أن الجاهليين قالوا الشعر في سن أحدث من السن التي قال فيها الشعراء بعدهم الشعر ممن تلقوا العربية بالتعلم فقط، كما افترض، في الغالب أيضاً ، جودة شعر مكتسبي اللغة سليقة مقابل شعر متعلميها، إلا إذا كان تعلمهم للغة جادا ومحباً ومتذوقاً يعوض عن نقص اكتسابها سليقةً مثل ماكان من شعراء قدماء ومعاصرين .

٦- ويسبب الازدواجية (ظاهريا من بعضهم) قامت الدعوة إلى العامية والتخلى عن الفصيحة حلا لهذه الازدواجية . وبعبارة صريحة قال أحد القساوسة فى زنجبار بعد إلغاء اللغة العربية القائمة فيها : «إن اللغة العربية لم تعد مستعملة فى غالبية البلدان العربية فى قلب الجزيرة العربية فكيف تريدونها تبقى فى زنجبار؟»[١٨] وهو يشير كما هو

واضح ليس إلى انتشار العامية فحسب وإنما إلى استحكامها ومزاحمتها للفصيحة . تلك - فيما يبدو - أهم آثار الازدواج اللغوى . وهى كما يتضح تشمل اللغة والفرد والمجتمع . من هنا فالمجدى أن نتوجه بكثير من الجدية والإخلاص إلى تحرى علاج يعتدل به ميزان الدارجة والفصيحة حتى لا يبقى إحساس مؤرق بإشكالية لهما .

وأقول الدارجة أو العامية انتهاجا للسائد وإلا فالوضع الصحيح أن يكون هناك مستويان متقاربان للعربية لا شقة تُباعد بينهما ، مستوى لغة الخطاب ومستوى لغة الكتاب .

ولأن الازدواج اللغوي يدوم زمناً طويلاً كما هو واضح من قراءة التاريخ والواقع - فإنه كلما طال بقاؤه اشتد تأثيره الذي وقفنا على بعض منه .

هوامش

١- قضية التحول إلى الفصحى ص : ٢٠٨ .

٢- انظر السابق ص : ٧٩ .

٣- شؤون لغوية ص : ٧٠ .

٤- قضية التحول إلى الفصحى ص : ١٧٩ .

٥- اللسان العربي ع : ٢٦ - ص : ٢٦ .

٦- لغتنا والحياة ص : ١٩٣ .

٧- السابق والصفحة .

٨- السابق والصفحة .

٩- السابق ص : ١٩٤ .

١٠- اللسان العربي ع : ٢٦ ص : ٢٣ .

١١- قضية التحول إلى الفصحى ص : ١٧٨ .

١٢- فقه اللغة العربية وخصائصها ص : ١٥٦ .

١٣- قضية التحول إلى الفصحى ص : ٢٧ .

١٤- اللغة العربية والفكر المستقبلي ص ٢٩٥.

١٥- منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ١٢٤ - ١٢٥ .

١٦- المقدمة ص ٥٧٢ .

١٧- السابق ص ٥٧٧ .

١٨ - الفصحى ونظرية الفكر العامي ص : ٢٩ .

الفصل الثاني

علاج الازدواج اللغوي

(١)

العلاج في اللغة العربية الفصيحة الميسرة

هل نتحرى العلاج فى العامية بديلا للفصيحة كتابة وتحدثا كما رأى بعضهم ؟ لا. والأسباب بدَهية أهمها أن هذا يعنى قضاء على اللغة العربية وهى لغة القرآن الكريم. وربما من هنا اكتسبت قداستَها عند الكثيرين لا بوصفها لغة بشرية . ثم إن هذا يهدد الوجود الحي للتراث العربى والإسلامى ، ويشل تحركه بين معابر الزمن . والأمة العربية ستفقد أوضح عناصر شخصيتها وهويتها وهو اللغة . والنتيجة تحللها بعد زمن إلى شعوب مختلفة بلغات مختلفة بعد أن كانت أمة واحدة . هذا بالإضافة إلى عجز العامية عن أن تكون لغة فكر ، وأدب راق ، ووثائق ، ثم إن هذه العامية المختارة لغة حديث وكتابة معا ستتحلل مستقبلا ، وسيتولد منها لغة محكية فتنشأ ازدواجية جديدة، وهكذا مثلما هو فى اليابان[١]. نقول هذا وقضية الدعوة إلى العامية أشبعت بحثا ودراسة وردودا وتفنيدا . وهى الآن ساكنة . وإذا ما نجحنا فى القضاء على

الازدواجية وهى سببها فلن تقوم لها قائمة .

وإذا لم تكن الدارجة هى العلاج فما العلاج للإزدواجية ، ولضعف المستوى اللغوى فى الوقت نفسه ؟

طرح بعض المخلصين «الفصحى» علاجا وبديلا . علاجا للازدواجية وبديلا للعامية . يريدون أن تكون لغة خطاب مثلما هى لغة كتابة . ولا أظنهم يُدخلون فى الحسبان المنحى الدلالى لصيغة التفضيل على أساس أن هناك فصيحا وأفصح فلنختر الأفصح . لا أظن هذا . طرح الفصحى من جانبهم جاء - على ما يبدو - تمشيا مع الاستعمال الغالب للكلمة . أما مسألة الفصاحة فمن مصلحتنا فى هذا الزمن ألا تتدرج، وإذا اكتسب التعبير أو اكتسبت الكلمة فصاحتها بقيا عليها ، وما يتدرج هو الجمال ونحوه، هذا جميل ، وذاك أجمل . وهذا سهل وذاك أسهل أو ذاك سلس وذاك أسلس وفق ظروف ومواقف وسياقات ، ولهذا فالأفضل استعمال كلمة «الفصيحة» بدلا من الفصحى لهذا السبب ولأن كلمة «الفصحى» تبعث حسب تقديرى وما تبدى لي من خلال طرح قضية العربية فى اجتماعات مناسبة ، رهبة فى النفوس وإحساسا بصعوبتها وأكاد أقول : وبعزلتها أيضا كأنها مجال لا يقتحمه أو يرتاده إلا

المتخصصون فى العربية وآدابها وفى العلوم الاسلامية .

والدعوة إلى الفصحى - كما يقول نهاد الموسى - «تاريخية تنتصب أمامنا منذ نشأت العاميات واستقرت الازدواجية وتمايز مستوى الكلام ومستوى الكتابة»(٢) وكما يقول محمد كرد على : «وحاول الغُير على اللغة فى كل قرن من قرون الإسلام أن يحيوا الفصحى ويبقوا عليها فى الخطاب كما حفظت فى الكتاب . فكان الجهلة يهزأون بهم ويتغامزون منكرين صنيعهم . وأقل ما يقولون فى المتكلم بالفصيح أن ينبزوه بأنه يتكلم بالنحوى»(٣) ثم تجاوزت الدعوة نطاقها إلى التنفيذ لكنها محاولات صغيرة تفتقر إلى كثير من آلياتها الفاعلة وظروفها المنتجة . وبعد هذا وقبله إلى منطقيتها وواقعيتها .

الدعوة إلى الفصحى طرحت - كما سلف القول - وتحققت تاريخيتها . وككل دعوة ، ووجهت بالقبول والترحيب والتفاؤل من بعض ، وبالتشكك فى إمكانيتها ، ووصفها بعدم الواقعية والاستحالة من آخرين(٤) . وما قصده هؤلاء هو استحالة أن تكون لغةُ الحياة اليومية هى نفسها لغة الكتابة بما فيها من مظاهر الفصحى وبخاصة الإعراب. وهذا - فيما يبدو - ما يستجيب

للعقل ومنطق الواقع وتاريخ اللغات نفسه. ليست هناك فى الواقع لغة واحدة للكتابة والحديث معا . لابد أن يكون فارقٌ ما بين لغة الحديث ولغة الكـــتابة . واللغة العربية نفســـــها قبل الإسلام لم تكن لغة حديث يومي فقد كانت هناك لهـــجات تقوم بهذه المهمة . ربما تكون تلك اللهجات مستوياتٍ للفصحى - كما رجحت فى موضع سابق - لكنها لا تلتزم بكل مظاهرها وبخاصة النحوى منها . وإذا كان «الإعراب فى اللغة العربية المشتركة لم يكن مظهرا من مظاهر السليقة للعرب جميعا »[٥] فهو فى اللهجة أحرى ألا يكون .

العامية مرفوضة علاجا للازدواجية اللغوية . والعربية الفصحى كما هى لغة للكتابة ، أى للعلم والأدب والفكر والثقافة يبدو من الصعب ، بكل مظاهرها ، أن تكون علاجا وبديلا للعامية أى أن تصبح لغة موحدة للكتابة والكلام معا ، فهذا مطلب «عزيز المنال وعر المسالك» كما عبر محمد الخضرى[٦] . وما هو «فى طبيعتها ولا هو طبيعة الناس» كما عبر مصطفى صادق الرافعى[٧] . فما العلاج ؟

لعلنا نلتمس العلاج فى لغة خطاب تقارب لغة الكتابة بمظاهرها وتدانيها وتلامسها ولكنها ليست هي ، وليست لغة

المتشدقين والمتفاصحين . هى «فصيحة ميسرة» تمييزا لها عن «الفصيحة» التى نفترض اكتمال مظاهرها النحوية والصرفية والدلالية والصوتية . وهي التى نفترض أيضا ممارستها فى حقول العلم والأدب وفي كل المناشط الثقافية المكتوبة .

والسؤال هو - أين نلتمس هذه الفصيحة الميسرة ؟ أهو فى أجواء الفصيحة والإتجاه إليها مباشرة ، كما يرى بعضنا ، دون التفات إلى العامية رغم ما فيها من مظاهر الفصاحة بحجة أن هذه العامية ، بما فيها من مبتذل القول وساقطه ومنحرفه وخطئه ، ربما تؤذى الفصيحة الميسرة التى نطمح إليها ؟ أم بتفصيح العامية والإرتقاء بها لأن هذه العامية كما يرى آخرون «عربية فى أصلها ، عربية فى معظم أساليبها وألفاظها ، وأنها وسيلة أيسر لتحقيق الوحدة اللغوية التى ننشدها»[٨] ويبدو هذا حقا فالعامية إذا نُفي منها المبتذل والدخيل وساقط القول هى فى حقيقتها فصيحة انحرفت مع الزمن . وإذن فالأجدى أن نتحرى الفصيحة الميسرة فى أجواء الفصيحة والعامية معا حتى تتكون لنا لغة كلامية مشتركة تقارب الفصيحة مع إبقائنا على «الفصيحة» لغة مكتوبة . وإذا كان دعاة العامية، فى ضوء وعي الفجوة بين لغة الخطاب ولغة

الكتابة ، قد رفعوا تساؤلا عن ما يجنيه التلميذ من فوائد لو كتب باللغة التى يتحدث بها (يقصدون العامية) . فإن تساؤلا - بالمقابل - سيكون عن ما يجنيه التلميذ لو تكلم لغة مقاربة للتى يكتب بها وهى ما أقترح تسميتها بالفصيحة الميسرة تمييزا لها عن الفصيحة لغة الكتابة كما سلف القول .

(٢)

سمات الفصيحة الميسرة

هذه الفصيحة الميسرة التى نحلم بها لغةً تواصل وتفاهم شفاهي فى الحياة اليومية ما استطعنا إلى ذلك سبيلا لابد أن تكون ذات خصائص تتفق وطبيعة الوظيفة التى ستنهض بها . وأول ما يبدو من هذه السمات هو التسامح الممكن في التخفف من الحركات الإعرابية بالتسكين على أواخر الكلمات مالم يتسبب ذلك في تغيير دلالي أو تشويه صوتي ، وما لم تكن الكلمة متصلة بضمير ففى هذه الحال لابد من تحقيق الحركة الإعرابية إذا كانت قابلة للظهور . واقتراح التسكين الممكن على أواخر الكلمات فى لغة الحديث المقترحة إنما هو - كما أشرت - تخفف من الإعراب الذى لا يزال أحد أسباب بل أهم أسباب صعوبة اللغة العربية فى نظر المتعلمين طلابا ومتخرجين . كما هو اتقاء لخطأ يحرف المعنى ويُوصِّل غير المقصود مثل ما يروى أن ابنة أبى الأسود الدؤلى ، قالت لأبيها يوما : ياأبت ما أحسنُ السماء . قال : أى بنية ، نجومُها . قالت : إنى لم أرد أى شئ منها أحسن ، وإنما تعجبت من حسنها . قال: إذا فقولى : ماأحسنَ السماءَ[٩] ! كما يروى

أنها قالت له أيضا : ياأبت ، ما أشدُّ الحر - فى يوم شديد الحر - فقال لها : إذا كانت الصقعاء (أى الشمس) من فوقك ، والرمضاء من تحتك . قالت : إنما أردت أن الحر شديد. قال : فقولى إذن : ما أشدَّ الحرَّ[١٠] . على أنه فى مثل هذا من الأفضل تحقيق الحركات إذا لم تكن نغمة الأداء ونبر العبارة موضحين لما يريده المتكلم وخُشي من خطأ الفهم . ويبدو أن التخفف من الإعراب بالتسكين في لغة الخطاب اليومية يلقى قبولا وتأييدا حتى من المختصين ، ففى إجابة عن أقرب الطرق إلى نشر الفصحى أوضح عبدالقادر المغربى باسم المجمع العلمى العربى بدمشق أن إلحاق علامات الإعراب النحوية بآخر الكلمات متعذر . وفى رأيه أن ذلك (إلحاق علامات الإعراب) يفضى إلى المفارقة وسخرية العامة» إلى جانب أنه رأى فيه تفريطا فى الوقت وتضييعا له «إذ إنَّ الحديث الذى يُحكى عادة فى دقيقة واحدة يضطر المعرب الذى يراعى القواعد أن يحكيه بأكثر من ذلك»[١١] . هذا عما يتعلق بالإعراب بالحركات . أما الإعراب بالحروف حذفا أو إثباتا فيظهر أنه لا سبيل إلى الترخص فيها إلا إذا استرجعنا واستثمرنا بعض ما كان حاصلا فى اللهجات العربية القديمة حينما تلزم حالة واحدة فى المثنى والأسماء

الخمسة مثلا فنلزم نحن حالة نتواضع عليها بالاستعمال . على أن مسألة الحركات الإعرابية فى بعض الأحيان وفى بعض المواقف تُترك لتقدير المتحدث المدرك المتذوق فربما احتاج لاظهار الحركات لوظيفة دلالية أو إيقاعية . وقد بدا لي التخفف من الإعراب سمة أولى للغة الحديث المقترحة لأن النحو عامة والإعراب خاصة هما معا فى طليعة الشكوى من اللغة العربية وأكثر ما يوهم بصعوبتها مكتوبة فكيف تكون الحال بها منطوقة . الإعراب يتطلب يقظة وانتباها ، وهذا لا يتيسر فى لغة نقترحها للحديث اليومى . لغة الحديث اليومى تتطلب سهولة ويسرا واسترسالا وانسيابية فى التفكير لا ينبغى أن يشوش عليه تفكير آخر وإلا كسبنا شيئا شكليا وخسرنا آخر مهما هو المضمون . ويروى أن علماء العربية أنفسَهَم مثل سيبويه والأصمعى لم يكونوا يسلكون منهجا إعرابيا كاملا . فقد كان الأول يلحن[١٢] ، والثانى يختلس الإعراب[١٣] . وابن خلدون يذكر لنا أن الإعراب جانب تطبيقى «علم بكيفية العمل» ولهذا يقول : «تجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة فى صناعة العربية ... إذا سئل ... أكثر من اللحن»[١٤] . أكثرُ من هذا أن رمضان عبد التواب يذكر أنه عثر على نص فى كتاب :

«نثر الدرر» للوزير أبى سعد الآبى يقول : «قال أبو العيناء : ما رأيت مثل الأصمعى قط ، أنشد بيتا من الشعر ، فاختلس الإعراب، ثم قال : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : كلام العرب الدرج ، وحدثنى عبدالله بن سَوَّار ، أن أباه قال : العرب تجتاز بالإعراب اجتيازا ، وحدثنى عيسى بن عمر ، أن ابن أبى إسحاق قال : العرب ترفرف على الإعراب ، ولا تتفيهق فيه ، وسمعت يونس يقول : العرب تشامُّ الإعراب ولا تحققه ، وسمعت الخشخاش بن الُحباب يقول : العرب تقع بالإعراب ، وكأنها لم ترد، وسمعت أبا الخطاب يقول : إعراب العرب الخطف والحذف . قال : فتعجب كل من حضر منه»(١٥) وإذا كان هذا شأن العرب أنفسهم مع الإعراب فلماذا التشدد فى موضع يجوز فيه التسامح وما هو ممكن ومستطاع . لِنشامَّ الإعراب - إذن - ولنرفرف عليه إلى الحد الذى تتحمله وتقبله لغة الحديث وإلا صرنا مثل ذلك النحوى الذى يقول فيه الشاعر :

ولست بنحوى يلوك لسانه ... ولكن سليقى أقول فأعرب

والتخفف من الإعراب فى لغة الحديث لا يعنى انحطاطا فى مقدرتنا اللغوية ، ولا فسادا فى لغتنا لأن «الانحطاط والفساد لا

يأتيان - مثلا - كما يقول شكرى محمد عياد - من إلقاء الحركات الإعرابية من لغة الحديث تخفيفا »[16] . ولا يبدو أن في التخفف الإعرابي الذي أطرحه هنا تنازلاً فيما يتعلق باللغة العربية وأهميتها ومكانتها، أو أنه يقودنا إلى تنازلٍ يفضي إلى لغة عامية تحل محل الفصيحة في كل المجالات . ليس في الأمر شيءٌ من هذا (كما يبدو) لأن ماأطرحه هو سمة للغة الحياة اليومية وشؤونها بدلاً من العامية التي تتحكم في ألسنتنا وتزاحم العربية الفصيحة . فأيهما أفضل أن نتحدث بهذه الفصيحة الميسرة أم نظل أسرى لهذه العامية الممجوج كثير من ألفاظها وعباراتها ؟! ثم ألسنا بهذه الفصيحة الميسرة ، إن نجحنا في ممارستها، نجسِّر الفجوة الواسعة بين العامية والفصيحة ونضيِّقها ثم لاتكون هناك ازدواجية لغوية ترمي بسلبياتها علينا ؟! ثم ألا يُحتمل أن نستمرئ هذه الفصيحة الميسرة فتغرينا بفصيحة أكثر اكتمالاً؟ نعم ، الفصيحة الميسرة أفضل من عاميات اليوم ، والتحدث بها يعني قضاء على مشكلة الازدواج اللغوي واتجاها نحو فصيحة أكثر تكاملاً .

والسمة الثانية للفصيحة المنطوقة هى تجنب ما يعرف بالتنطع

والتقعر والتشدق. وهى كلمات تعنى التكلف فى الحديث وأدائه ونطقه ، وليٌ الشدقين أو لوك اللسان تفاصحا . وهذه السمة تنسجم مع منطق تطور اللغات فقد لوحظ أن التطور الصوتي فيها يميل نحو تيسير النطق وتسهيله والاقتصاد في الجهد العضلي أثناءه[١٧] لا التكلف والتقعر والتشدق فيه ، فكلام بهـذا المستوى يجلب الغثيان ، ويثـير السـخرية والضحك . إنه يساعد على إيجاد كراهية للعربية ونفور منها عند أهلها وبخاصـة الناشئة الذين نشكو ضعف المستوى اللغوى لديهم . والمؤسف أن من يتحدث بهذه الطريقة يظنها فصاحة لغوية. والأمر غير هذا حتى عند العرب أنفسهم . فهم «يعدون المتقعرين والمتشدقين والمتفيهقين والمتنطعين والمتكلفين غير فصحاء ولا بلغاء ، ويتندرون بهم ويضحكون عليهم»[١٨] ولعل هذا التشدق والتقعر والتنطع هو سبب ما نشاهده أو نسمعه فى المسرح والتلفاز والمذياع من مواقف لشخصية تتحدث الفصحى بتقعر وتشدق والهدف هو السخرية والتهكم من هذه الطريقة ، ولفت الانتباه إلى سماجتها وثقلها فى واقع الحياة . والتفاصح والتزمت إما بالاحتفال بغريب اللغة أو صعبها ، وإما بالترفع عن ألفاظ فصيحة فى العامية لا لشئ إلا

لأنها مستعملة فيها هو أيضا مما ينبغى تحاشيه . لِنتوخَّ اللفظ السهل الفصيح الواضح المأنوس غير مترفعين عن ألفاظ الدارجة مادامت فصيحة . فهناك رصيد مشترك بين الفصيحة والعامية وعلينا أن نغترف منه . وهناك ألفاظ عامية لاشك فى فصاحتها وكل ماتحتاج إليه تصحيح ماأصابها من انحراف في النطق. وهناك أخرى لاشك في فصاحتها أيضاً لكن التفاصح والتزمت والجهل اللغوى يقلب الوضع ويخلطه . يروى محمود تيمور فى هذا السياق: «كنت أستمع إلى إحدى الإذاعات . فقال المذيع : إن السقاة امتنعوا عن نقل الماء إلى القوات المعادية ، فهذا المذيع الفصيح يتوخى ألا يقول «السقائين» بدلا من : السقاة ، ولم ينصف العامية ولا الفصحى فيما توخى ، فالسقاة تنصرف أكثر ما تنصرف إلى السعاة بكئوس الخمر فى مجالس المنادمة، وقد خصصت كلمة الساقى لهذا المعنى فى التعبير الأدبى على توالى العصور . واستعمل فصحاء الكتاب قديما كلمة السقائين لمن يسقون الناس ماء أو يحملون الماء إلى البيوت ، وقد رووا أن «أبا تمام» كان فى حداثته سقاء فى مسجد عمرو، ولو عبرنا بأنه كان ساقيا لاشتبه المسجد بالحان ،.والتبس الماء بالصهبـــاء!»[١٩] وهناك

أيضا ألفاظ عامية لاشك فى أصل فصاحتها ، وكل ما حصل لها انحراف من السهل تصحيحه فى الاستعمال إذا صدق العزم والنية. فصيحتنا المقترحة للخطاب اليومى لا تنبذ العامية لِتُدَنّي الفصيحة بكل عناصرها . فهذا ظلم للعامية والفصيحة معا . وهدفنا هو ردم الفجوة الواسعة بين اللغتين (الفصيحة والعامية) إلى حد إمكانية العبور وسهولته بينهما. ولهذا فالفصيحة الميسرة المقترحة نتيجةُ تفاعل بين الإثنتين أملا فى أن نحقق مستويين متقاربين للعربية : مستوى فصيح للكتابة ، ومستوى فصيح ميسر للحديث . هذا التفاعل سيثمر اطِّراح مفردات وتعبيرات فى العامية مبتذلة سوقية ترفضها الذائقة اللغوية والجمالية . والفاظٍ تفتقر إلى الدلالة الواضحة الأصيلة . وسيثمر تعديل وتهذيب ما أصاب المستوى الصوتى أو الصرفى من اضطراب وإدخالهما فى المسار الصحيح الضروري للفصيحة . كما سيثمر لغة خفيفة رشيقة واضحة سهلة مهذبة نقية طيّعة للحياة اليومية ، فيها من السرعة والانسيابية والحيوية وقابلية التنامى ما ينسجم مع إيقاع العصر ، فكأن الأمر عملية انتقاء من الفصيحة والعامية معا لما يصلح للغة الكلام. كما سيثمر لغة لا تنتمى سماتها ولا عناصرها الصوتية والنطقية بخاصة

إلى بيئة محلية أو إقليمية محددة لأنها ، كما ينبغى أن نخطط لها ، نتيجة انصهار العاميات العربية كلها فى بوتقة الفصيحة ، أى تقريب ما بين هذه العاميات من ناحية ، وما بينها وبين الفصيحة من ناحية أخرى حتى لا تتطور هذه العاميات فى معزلٍ بعضها عن بعض فتبعد الشقة بين كل واحدة وأخرى وبينها جميعا وبين اللغة الأم . هذه ، فيما يبدو ، أبرز ملامح صورة اللغة التى أراها ممكنة التحقق ، مع الأيام وبالممارسة والاستعمال ، لغة حديث يومى فى البيت والمدرسة والجامعة والعمل والسوق والشارع . فهل هذا ممكن؟

هوامش

١- قضية التحول إلى الفصحى ص : ١٩٢ - ١٩٣ .

٢- السابق ص : ٣٣ .

٣- عن : السابق والصفحة .

٤- يرجع فى تاريخ «قضية التحول والموقف منها» إلى السابق ص : ٣٣ - ٤٩ .

٥- محاضرات عن مستقبل اللغة العربية المشتركة ص: ١٢-١٣

٦- عن : قضية التحول إلى الفصحى ص : ٤٢ .

٧- السابق ص : ٤٤ .

٨- محاضرات عن مستقبل اللغة العربية المشتركة ص : ٧١ .

٩- عن : فصول فى فقه العربية ص : ٣٨٨ .

١٠- السابق والصفحة .

١١- عن : قضية التحول إلى الفصحى ص : ٣٦ - ٣٧ .

١٢- من قضايا اللغة العربية المعاصرة ص : ١٩٩ .

١٣- فصول فى فقه العربية ص : ٨٠ .

١٤- المقدمة ص : ٥٦٠ .

١٥- عن : فصول فى فقه العربية ص : ٨٠ .

١٦- اللغة والابداع ص : ١١٠ .

١٧- انظر : دلالة الألفاظ ص ٣٢ ، إبراهيم أنيس .

١٨- قضايا ومشكلات لغوية ص : ٩٣ .

١٩- مشكلات اللغة العربية ص : ٢١٥ .

(٣)

عقبات فى الطريق

١- ربما يرد فى أذهان بعضنا أشياء يعدها عقبات فى الطريق مثل صعوبة العربية التى تُرفع بين آونة وأخرى . وفى يقينى أن صعوبة العربية مقولة ضخمتها الشائعات المغرض بعضها والمتوهَّم بعضها الآخر .العربية لغة . وكل لغة لابد أن تكون صعبة بطبيعتها أولا ثم حسب ظروف تعلمها وتعليمها ومتعلميها . كل لغة لابد فيها من قواعد نحوية وصرفية وصوتية خاصة بها واللغة العربية ليست بدعا فى هذا . «وإذا كانت صعوبة العربية تفرض تركها - كما يقول أحمد عبدالغفور عطار - فإن من هذا الفرض ترك كل العلوم (وكل اللغات) لصعوبتها»[١] وهذا حق فالصعوبة لا تبرر اطّراح الشئ . ما يبرره أشياء مثل عدم فائدته ، وعجزه عن التوظيف ، وصَمَمِه عن روح العصر وإيقاعه . ليس فى طبيعة اللسان العربى - كما يقول حفنى ناصف - شئ من الصعوبة ، وإنما هى طريقة التلقين وبيئة التعليم»[٢] وليس من الظن أن هناك لغة سهلة وأخرى صعبة . لكل لغة صعوبتها . وما يمكن أن يقال هو تفاوت هذه الصعوبة من

لغة إلى أخرى ، أو أن لكل لغة صعوبة نوعية . ولو كان في العربية صعوبة تنفرد بها لما انتشرت في يسر بعد الفتوحات الإسلامية حتى أصبحت لغة البلدان المفتوحة ، ولما نبغ فيها علماء وأدباء من غير أهلها . وصعوبة العربية ليست شيئا كامنا فيها لا يتزحزح وإلا لما عاشت هذه القرون العديدة . سهولة العربية أكثر مما نتصور لو تيسرت لها طرق التعليم الناجحة ، والوقت الكافي والحب والتقدير الكافيان، والممارسة اليومية الصحيحة الممكنة . وأرجو التذكير بأن المقصودة بالممارسة إنما هي الفصيحة الميسرة كما رأيت تسميتها ، وبوصفها نتاج تفاعل مأمول بين الفصيحة والعامية . وإذا كان ما يُسمى بالعربية الوسطى التى «تمثل مستوى لغويا بين بين ، يرقى عن العامية قليلا ، ولكنه مايزال يغاير الفصحى ... دليلا صريحا على أثر لتفاعل بين العامية التى نكتسبها اكتسابا والفصحى التى نتعلمها تعلما»[٣] فاننا نتوق إلى أن يستمر هذا التفاعل وينشط ليثمر العربية الفصيحة الميسرة . وليست هذه الفصيحة الميسرة التى نقترح التحول إليها بمختلفة فى جوهرها عن ما ألفناه سواء فى الفصيحة أو الدارجة فنحن نملك الاطار أو

المنوال اللغوى العام (وإن كانت السيادة فيه للعامية) ومن هنا تنتفى الصعوبة المزعومة . ثم إن هذه الشكوى من الصعوبة لا تأتى كثيرا إلا من الإعراب ، والفصيحة التى نقترحها متخففة مما يمكن من حركاته وفق تقديرات دلالية أو نبرية من المتحدث كما سبق القول .

٢- وهناك راسب فى بعض النفوس هو أن اللغة العربية قاصرة عن مواكبة العصر وعن مطالب الحياة اليومية ، وعاجزة عن الأداء أو التعبير الدقيق عن فكره وعلمه وفلسفته . قد يكون هذا الراسب مركب نقص فى النفوس نفسها . وقد يكون جهلا منها ، وقد يكون فرية أطلقت فصدقت حتى من أهل العربية أنفسهم . وأقول هذا لأن العربية كانت قبل عهدها بالازدواجية لغة حديث ناجحة ، ولأن تاريخها مع العلوم والمعارف واستيعابها لها بالترجمة والتأليف ينقض هذا الانطباع الخاطئ ويثبت قدرة العربية على مواكبة العصر بمستجداته وتحولاته وتغيراته . ثم إنه لا ذنب للغةٍ ما (مثل العربية) إذا ما كان تقصير من هذا النوع . الذنب على أبناء اللغة أنفسهم فأوضاعهم من تقدم وتأخر تنعكس على لغتهم. واللغات تكتسب قوتها وثراءها وحيويتها من أهلها

وحجم اهتمامهم بها ورعايتهم لها . هناك لغات ديناصورية أو أوشكت أن تكون كذلك فأحياها أهلها قبل أن تندثر بحماستهم وحبهم وعزائمهم ، أحيوها لغة حياة يومية مثلما أحيوها لغة علم وأدب وفكر وثقافة ولم تقصر عن مواكبة العصر ومطالب الحياة .

٣- ويغالط أحدهم (سلامة موسى) بأن الفصحى «تمنع العلماء فى هذه البلاد (مصر) من التفكير الحر» ولكن «إذا كانت اللغة الفصحى - كما رد عليه أحمد عبدالغفور عطار - التى لا يتكلمها فى مصر إلا مئات أو بضعة آلاف منعت العلماء من التفكير الحر وقتلت فى الذهن كل ابتكار فلماذا لم تحمل العامية الناطقين بها وهم ملايين أن يفكروا تفكيرا حرا ويبتكروا؟»[٤] نعم الفكر ذو علاقة وثيقة باللغة لكن اللغة لا تلونه ولا تحدد اتجاهاته . اللغة مسئولة عن التعبير عن هذا الفكر ، وما سوى هذا فالمسئول شئ آخر . ما فى العالم العربى من تفكير حر عرف عند المتعلمين . وكثير منهم تعلموا بواسطة الفصحى فما عاقتهم عن هذا التفكير الحر . للتفكير الحر بواعثه فى التعليم والتربية والأشخاص والمجتمع والدولة ، وما اللغة إلا إحدى آلياته الرئيسة التى

تبرزه . واللغة (أي لغة) قد تُبرز فكرا تابعا ذليلا مستسلما فهل هى مسئولية اللغة أم مُنتج الفكر وظروفه ! الفصيحة لا العامية هى أوثق صلة بالفكر . وما نطمح إليه لغة خطاب تقاربها . أى لغة تقربنا خطوة أو أكثر بالفكر وأجوائه.

٤- وبعضنا يتشاءم ويستسلم فلا يرى أملا فى محو هذه العاميات التى تغلغلت فى النفوس والعقول معا ، فشكلت عقبة كئودا دون لغة فصيحة تحل مكانها . وبعض هذا صحيح إلى حد كبير ، فالعاميات متمكنة منا ، وألفتنا لها طويلة ، رضعناها فى حجور الأمهات ، وكسبناها أطفالا وفتيانا وشبانا ونمارسها كبارا فنحن منها وهى منا مثل اللّفقين ، لكن هذا لا يعنى أن نستسلم لها فهى كما يقول شكرى فيصل : «ليست حتما من الحتم .. قد يكون وجودها فى أى لغة - تحت ظروف معينة - حتميا .. ولكن الخضوع لها ليس قدرنا ولا يمكن أن يكون قدرها .. مهما يكن لهذه العامية من جذور ومهما يحتج لها من يحتج»(٥) . واستحالة تهذيب هذه العاميات والارتقاءِ بها وعقدِ مصالحة فاعلة بينها وبين الفصيحة غير صحيح . والمصالحة هذه هى - كما

قلت - بممارسة الفصيحة الميسرة فى حياتنا اليومية ما أمكن هذا حتى نصل إلى المطمح .

وصحيح أن ممارسة الفصيحة الميسرة فى سياق عملية تحوُّلٍ إليها من العامية شئ تكتنفه صعوبات متنوعة بعضها أشرنا إليه ، وبعضها لم نشر إليه مثل امتلاك الشجاعة لخوض هذه التجربة ، ومثل الأمية التى لا تزال مستوطنة فى كثير من بقاع العالم العربى، لكن الصبر والأناة وطول النفس والتوعية والتعبئة والتخطيط - كما يرى عبدالرحمن ياغى[٦١] - إلى جانب الإيمان بالمشروع والرغبة المخلصة فى تحقيقه - كل هذه الأشياء عوامل تساعدنا على تذليل الصعوبات . والفصيحة الميسرة التى أقترحها ليست مبتدعة حتى يكون التحول إليها مستحيلا . هى نسق لغوى شأنه شأن الأنسقة اللغوية الأخرى ، ونمتلك هيئاته من خلال خبرتنا اللغوية ، أى نملك منواله الذى نُكوِّن وَفقه جُملنا وتعبيراتنا المتجددة حسب المواقف والمتطلبات . وعلى هذا فالعقبات والصعوبات التى نظنها تحول دون ممارسة الفصيحة المقترحة واستعمالها ينبغى أن تتضاءل لأن الخيار لا يبدو إلا فيها

(الممارسة) أو البقاء فى مأزق الازدواجية . الممارسة هى حياة اللغة ، وهى الخطوة الحاسمة فى طريق التحول نحو العربية المهذبة وترسخها . والدراسات اللغوية الجديدة تفيد أن أهم ما نتج عنها من أفكار هو «أن حياة اللغة هى استخدامها والتعامل بها ... ولم يقم - حتى اليوم - من النظريات ما يستطيع أن يدحض هذا الرأى، فممارسة اللغة ، باستخدامها والتعامل بها ، أبرز مظاهر الحياة فيها»[٧] وعلى هذا يتفق كثير من الدارسين والباحثين فى مجال اللغة وتعلمها واكتسابها حين عجزت طرائق التدريس والأساليب التلقينية «إذ إن اللغة - كما يقول محمود أحمد السيد - لا تكتسب إلا بالممارسة والمران والاستخدام المستمر»[٨] و «الشرط الأساسي لحياة اللغة - عند على عبدالواحد وافى - هو التكلم بها»[٩] وجوليا كريستيفا لا ترى اللغة إلا «ممارسة يومية قبل كل شئ ، ممارسة تستغرق كل ثانية من حياتنا وتتضمنها»[١٠]. ممارسة اللغة تعني إيجاد تآلف بيننا وبينها. وإذا تحقق هذا بيننا وبين العربية الفصيحة الميسرة بدلا من العامية - تحقق معه انطلاقة نوعية ستضع اللغة العربية في مسارٍ أكثر سلامة وأمنا وتطورا .

هوامش

١- دفاع عن الفصحى ص : ١٣ .

٢- عن : قضية التحول إلى الفصحى ص : ١٧٨ .

٣- عن : دفاع عن الفصحى ص : ٨٥ .

٤- السابق والصفحة .

٥- اللسان العربي ع : ٦ ص : ٢٣ .

٦- عن : قضية التحول إلى الفصحى ص : ٤٦ .

٧- تنمية اللغة العربية فى العصر الحديث ص : ٣٩ .

٨- شئون لغوية ص : ٧١ .

٩- اللغة والمجتمع ص : ٣٩ .

١٠- من قضايا اللغة العربية المعاصرة ص : ٣٠٤ .

(٤)

مشجعات وإيجابيات

ويضاف إلى ماللمارسة من أهمية تُهوِّن صعوباتِها مشجعاتٌ عليها وإيجابياتٌ لهـا .

أما المشجعات فأحدها أن اللغة الفصيحة كانت فى سابق عهدها ممارسة ومستعملة لغةَ خطاب بين العرب أو شريحة منهم على الأقل . وإذا صح مايروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم، حين لحن أحدهم ، قال: « أرشدوا أخاكم فقد ضل» فهو شاهدٌ بهذا . وعمر بن الخطاب (رضى الله عنه) مر على قوم يسيئون الرمى ، فقرَعهم ، فقالوا : إنا قوم متعلمين ، فأعرض مغضبا ، وقال : والله لخطؤكم فى لسانكم أشد عليّ من خطئكم في رميكم [١] . ومسألة اللهجات بجانب الفصحى ليست - فيما أرى - فى مستوى العاميات بقدر ما هى مستويات للفصحى . وحتى بعد هذا الزمن ظل بعضهم يستخدم الفصيحة فى حديثه أو يقاربها ويحاولها . يُروى - مثلا - أن رجلاً قال للحسن البصرى: يا أبوسعيد ، فقال له : كَسْب الدوانيق (أسداس الدراهم فى عهدهم) شغلك عن أن تقول : يا أبا سعيد [٢] . ويُروى أن رجلا دخل على

زياد ، فقال له : إن أبينا هلك ، وإن أخينا غصبنا على ميراثنا من أبانا ، فقال زياد : ما ضيعت من نفســـك أكثر مما ضاع من مالك[٣]. كما يروى أنه دخل على عبدالعزيز بن مروان رجل يشكو صهرا له ، فقال : إن خَتَني فعل كذا وكذا . فقال له عبدالعزيز : ومن خَتَنَكَ ؟ قال : الختّان الذى يختن الناس. فقال عبدالعزيز لكاتبه : ويحك ، بم أجابنى ؟ فقال : أيها الأمير إنك لحنت - وهو لا يعرف اللحن - كان ينبغى أن تقول : من خَتَنُك؟ [٤] والجاحظ يروى لنا أن النحويين متى وجدوا أعرابيا يفهم قول : ذهبت إلى أبوزيد ، ورأيت أبى عمر وأشباهه بهرجوه ولم يسمعوا منه [٥] . فهذه الروايات وأمثالها تدل -فى أحد جوانبها- على أن الفصيحة كانت يوما ما لغة حديث يومي بالفعل أو المقاربة أو المحاولة .

والمشجع الثانى هو هذه اللغة الوسطى التى ارتقت عن العامية وأخذت من الفصيحة فهى وسط بينهما . هذه اللغة تدور فى أوساط المثقفين خاصة والمتعلمين عامة فى ندواتهم وحواراتهم وكثير من لقاءاتهم . ووجودها يعنى خطوة فى مسيرة التقارب بين الفصيحة والعامية ، وفى الوقت ذاته مصداق لإمكانية تحقق لغة أرقى منها وأكثر فصاحة وبخاصة مع استمرار عملية انتشار

التعليم والوعى ، والتفاؤلِ بتراجع الأمية . والمكانة الجليلة للغة العربية الفصيحة بحكم كونها لغة القرآن الكريم مشجع آخر ينضاف إلى ما قبله ويعطى المشروع قوة دافعة يعززها كون الفصيحة هى اللسان الأم للأمة العربية وعنوان هويتها وقوام شخصيتها . والمجدى أن يوجِد فينا كل هذا حماسة لاستخدامها فصيحةً ميسرة، كما وَصَفْتُ لا أن يدفعنا إلى تقديس ظالم يجمدها ويعوقها عن التطور فهى لغة يجوز عليها ما يجوز على غيرها من اللغات من تحول وتجدد وتولد واستعارة من غيرها . مكانة اللغة التى نحملها لها تعنى حبها والاعتزاز بها ، وتعنى توظيف هذا الحب إلى عقد صداقة معها وألفة تجلوان عنها أصداء الكِتاب حتى نحس بشاعريتها وموسيقيتها فى الأفواه والآذان .

أما إيجابيات الممارسة أو فوائدها فمنها ما ينعكس على اللغة العربية ذاتها ، ومنها ما يعود على المجتمع ، ومنها غير ذلك . وتطوير العربية والحفاظ عليها هاجس يؤرق المهتمين والمؤمنين بها من أهلها . ونحن واجدون فى الممارسة ما يجدى كثيرا فى هذا. يقول شكرى فيصل : «وحين يؤمن قوم بلغتهم إيمانا صادقا عمليا وحين يمارسونها ممارسة سليمة ، فإن ذلك أول مراحل

الحفاظ عليها من جهة وتمهيد الطريق أمام تطورها من جهة أخرى ، تطوراً ينبع من ثنايا الاستعمال والتطبيق ، لا من خلال التهويمات النظرية»[٦]. والاستعمال يصقل اللغة ويهيئ لها تجليات وانكشافات جمالية وإبداعية لولا هذا الاستعمال لظلت خامدة خابية. واللغة دون استعمال حي بالصوت والنبر والتنغيم تبدو هشة متنافرة قابلة للاختراق والانكسار والتهافت ، لكن الاستعمال يعيد تماسكها ويقويه، كما يعيد لها الصلابة والاستقامة والتجانس . الممارسة تقود إلى ألفة اللغة وتذوقها وحبها واكتشاف أسرارها الجمالية والتعبيرية . هى «كيمياء» إذا ما مست لغة أحالتها كائنا حيا يمور بالنشاط والحيوية والتفتح والتجدد . وممارسة العربية الفصيحة واستخدامها يعني إخراجها من عزلتها في الكتاب. يعنى أنسنتها بربطها بالناس فإذا نفخوا فيها من أرواحهم راضت وسلست وذهب مانتوهم فيها من صعوبة. وإذا ما تحقق لغة خطاب فصيحة بكل تلك المستويات تحقق معها معيارية نطمئن إليها ويهدأ بالنا إذا ما تناولها اللسانيون الجدد بالبحث والدراسة والرصد بخلاف عامياتنا التى لا تمتلك ملامح واضحة ولا شخصية متميزة .

وممارسة الفصيحة الميسرة بالاستعمال والاستخدام اليومي يعنى ردم الفجوة الواسعة بين العامية والفصيحة . يعنى حل مشكلة الازدواج اللغوى الذى لا تزال كثير من مشاكلنا اللغوية ناشطة بسببه . ويعنى زوال ما يحسبه بعضنا صعوبة في الفصيحة. ويعنى انفراج ما نعانى من أزمة لغوية . وستصبح فصيحةُ العلم والأدب والفكر والثقافة سهلة قريبة الإدراك والتناول لأن لغة المشافهة (الفصيحة الميسرة) قريبة منها تسير في نسقها باستثناء مسائل إعرابية لا نرى لغة الكلام والحياة اليومية تحتملها .

وإذا استقرت الفصيحة الميسرة لغة حديث مشتركة للأمة العربية خفت كثيرا فوارق النطق ، سواء على مستوى العالم العربي كله أو البلد العربى الواحد ومناطقه باستثناء خصوصية نطقية مستحكمة . سَيَمْحى نطق أسمع بدل إسمع ، وإجا بدل جاء ، وهلاً بدل الآن ، وبنوب أو موليّه بدل أبدا ، وماكو بدل مافيه ، وسَمَّ بدل ثمَّ ، وهازا بدل هذا . والطريز بدل الطريق ، واليمعة بدل الجمعة ، وكتابش بدل كتابك ، وشو بدل ماذا ، والإسم بدل القِسم ، والقَمَل (قاف مخفّفة وأقصد الجيم المصرية) بدل الجمَل ، وبُه بدل بِه، ومنو بدل من هو ؟ وشنو بدل ما هو ؟ وغيره ونحوه كثير . واستقرار

الفصيحة المقترحة يوحد المشاعر العربية والوطنية ، ويعزز عوامل الانسجام والتجانس بين جماعات وأفراد كل قطر عربى بذوبان كل لهجة إقليمية أو خصوصية نطقية فى سياقها فيساعد هذا فى تخفيف الحساسية الإقليمية . بل إن هذه الفصيحة ، لغةً مشتركة ، هى بذاتها عامل تماسك وتوحد ورقى . ولهذا يقول ريمون طحان ، ودنيز بيطار طحان : «ويسود الإعتقاد أن الأفراد الذين ينتفعون بلغة واحدة هم قادرون على أن يؤلفوا مجتمعا ألسنيا موحداً ، وهم مؤهلون لأن ينتظموا فى كتلة بشرية متجانسة ، ويفترض قيام اللغة وجود منتفعين بها ، يتفاعلون معها وتتفاعل معهم ، ولهذا التفاعل أهمية عظمى فى نشوء وارتقاء الأقوام والشعوب والأمم... والمجتمع الذى بنى على لغة ، يشترك فيها جميع أفراده، هو من أقوى المجتمعات ، ومن أمتنها ، ومن أشدها تماسكا » (٧) وإلى جانب عامليّة التماسك الاجتماعى التى تتسم بها الفصيحة المشتركة تتولد عاملية أخرى هى عاملية المعيارية لهذا التماسك ، ولهذا فإن سابير «يعتبر اللغة المشتركة معيارا للتماسك الاجتماعى» (٨) ويبدو هذا حقيقة يصعب إدراكها عند الشعوب التى استقرت لغاتها ومسيرتها .

وإذا استقرت الفصيحة الميسرة على أنقاض الازدواج اللغوى، واتضحت ملامح شخصيتها لغةً منطوقة مشتركة للأمة العربية - قويت جاذبيتها لا لأبنائها وحدهم وإنما لغيرهم ممن يرغبون فى تعلمها . سيقبلون عليها وعلى الفصيحة المكتوبة بعد حيرة فى أى لغة يتعلمون : الفصيحة أم إحدى العاميات العربية .

وإذا صح أن «كلمات اللغة - فى رأى سلامة موسى - تقرر لنا الأفكار والانفعالات وتعين لنا السلوك» [٩] فإن التحدث بهذا اللون من اللغة يقرر أفكارا أقوى وأرقى ، وانفعالات أكثر انضباطا ، وسلوكا أفضل تهذيبا لأن اللغة نفسها أصبحت أصفى وأنقى وأوضح تماسكا ، والمتوقع حينئذ أن يكون عطاؤها متجانسا منسجما معها، وأن تنعكس بما فيها من سمات على السلوك الفكرى والإنفعالى . وربما لنحو من هذا كانت نظرة الألسنية التوليدية والتحويلية إلى اللغة من منطلق أنها مكون من مكونات العقل الانسانى والمعرفة الانسانية [١٠] .

هذه وتلك فوائد ومشجعات استعمال الفصيحة الميسرة وممارستها فى حياتنا . والمؤكد أن هناك أشياء غابت عنى ، وأشياء لا تظهر إلا بالممارسة ومعها . فهل نبدأ ؟ كيف ؟ وأين ؟

هوامش

١- عن : فصول فى فقه العربية ص : ٣٨٩ .

٢- السابق ص : ٣٨٨ .

٣- السابق والصفحة .

٤- السابق ص : ٣٨٩ .

٥- البيان والتبيين ج : ١ - ص : ١٦٢ - ١٦٣ .

٦- اللسان العربي ع : ٢٦ - ص : ٢٧ - ٢٨ .

٧- اللغة العربية وتحديات العصر ص : ٥ - ٦ .

٨- الثروة اللغوية ص : ٩ .

٩- عن : لغتنا والحياة ص : ١٠٨ .

١٠- قضايا ألسنية تطبيقية ص : ٥٧ .

(٥)

المنطلقات

نعم . لنبدأ . والبداية هى الخطوة الأولى فى ألف ميل استعمال الفصيحة الميسرة وتحولها عادة كلامية فى حياتنا اليومية. من يستطيع أن يستعمل هذه الفصيحة فليبدأ . ولنبدأ معا ، فجماعية البداية اختراق لحواجز الخوف والتشكك . وكما قلت فى موضع سابق : نحن أمام مشروع طموح فى مستوى الحلم . ومباشرته عمل بطولي وشجاع من الفرد والمجتمع معا . ولعل أحرى المنطلقات لهذا المشروع هى البيت والمدرسة ووسائل الإعلام ومقر العمل .

فى البيت :

البيت هو المكان الذى تولد فيه اللغة ثم تحبو مع صاحبها حتى تنهض على قدميها معه . من هنا ، نقيم للبيت والأسرة أهمية فاعلة فى اكتساب اللغة. وأقول «اكتساب» تمييزا له عن التعلم ومرحلته التى لا تأتى إلا لاحقا فى الصف الدراسى . فما نحن فيه الآن هو اكتساب اللغة بشكل طبعى . وما يبدو هو أن هذه المرحلة المبكرة مَنْسيَّة لغويا ، ولا تُوظَّف توظيفا مثمرا يخدم اللغة الأم

التى سيواجَه بها الطفل أو الطفلة بعد سنوات . وأعتقد أن الوقت مناسب الآن - إن لم يكن متأخراً - فى أن تقوم الأسرة بواجبها فى استثمار مرحلة الاكتساب المبكرة فى حياة الطفل ، ووعيها لنوعية اللغة التى تُرضعها له بوصفها الحلقة الأولى فى سلسلة متوالية من الاكتساب والتعلم اللغوى .

فى القديم يتحادث العرب أو بعضهم بالفصيحة أو ما يقاربها لأنهم اكتسبوها صغاراً وشبانا . وفى الوقت الحاضر نتحادث بالعامية لأننا اكتسبناها فى الصغر والنشأة ، فما نكتسبه أو نحاكيه فى الصغر هو ما نتحادث ونتفاهم ونتشافه به فى الكبر إن لم يحدث ما يحول النهر عن مجراه من مُسيِّري النهر أنفسهم وظروفهم . الطفل فى مرحلته الأولى لا يتعلم اللغة مع القلم والكتاب والمدرس ، يتعلمها بآلية مختلفة تماما . إنه فى الواقع يكتسبها بعيدا عن طرق التعليم وآلياته التى تبدو غافلة عن الاكتساب ، وكونِها معززاً له وعاملاً على استمراريته لا بديلاً له . وربما من هذا المفهوم لاكتساب اللغة ركز عليه بعض الدارسين وأوَلوه غير قليل من الأهمية . شكرى فيصل - مثلا - أعطاه أهمية فى مستوى أن يكون منطقَ ثورة شاملة للإصلاح اللغوى ،

وأنه معرفة أقصر الطرق إلى ممارسة اللغة لأننا فيه نسعى إلى تآلف بين اللغة والمحيط بخلاف ما في التعليم من تنافر بينهما [1].

وإذا كان «اكتساب الطفل للغة - كما يذهب ديفيد بلايخ- يمكّنه من تأسيس سيطرة ذاتية على التجربة» [2] فإن هذا الاكتساب ، إذا كان مبكراً قوياً سليماً متوازناً، سيمنح هذه السيطرة على تجربة الحياة وخبرتها قوةً وسلامةً وتوازناً ؛ فكأننا نربي الطفل من خلال اللغة .

ولا أعلم أن هناك خلافا في مسألة اكتساب الانسان لغته في مرحلته الأولى . فالخلاف هو في تفسير هذا الاكتساب . أهو بالتقليد والمحاكاة ؟ أم بالملكة اللغوية الفطرية ؟

بعض التربويين وعلماء اللغة يعتمد النظرية السلوكية لاكتساب اللغة ، وربطها بالعادات والسلوك . فاللغة على هذا عادة كلامية وشكل من أشكال السلوك . وهي مهارة سلوكية تُتعلم كما تُتعلم أية مهارة سلوكية أخرى بالمحاكاة أو التمرين أو الحافز أو بها جميعا . ويضع «سكينر» بالتالي «على عاتق البيئة بالذات مسؤولية العمل على جعل الطفل يكتسب لغتها . فالأهل ، بتصوره هم مصدر المعطيات اللغوية التي يحاكيها الطفل. وعملية

التعزيز التى يقوم بها الأهل هى العملية اللازمة لتوفير العادات الكلامية. فبرامج التعزيز تزيد من احتمال استجابات الطفل» [٣]

ويبدو أن التقليد هو محور النظرية السلوكية لاكتساب اللغة . يسمع الطفل كلام من حوله وطريقته فيحاكيه. ويؤمن بعضهم بأهمية المحاكاة فى اكتساب اللغة إلى حد القول بأن «أهمية المحاكاة لا ينكرها أحد» [٤] وجعلها - كما يرى بريير - «أهم عامل في تعلم اللغة عند الفرد» [٥] وأنها «المرحلة الحساسة فى هذا التعلم» [٦] أو - كما يرى اشترن - «العامل الأول والأكبر فى تعلم اللغة» [٧] ومحمود السيد يقول : «من الواضح أن الطفل يكتسب اللغة عن طريق المحاكاة، محاكاته من حوله فى المجتمع الذى يحيا فيه ، وأن للجو الذى يحيط بالطفل أثرا فى تعزيز تلك المحاكاة فيما لو كان إيجابيا» [٨] و عند بعضهم أن «التقليد والتلقين هما ... الوسيلتان اللتان اجتمع علماء النفس وعلماء اللغة أيضاً على التسليم بدورهما الفعال فى اكتساب الطفل اللغة أصواتاً وكلمات وجملاً» [٩] وليلى أحمد كرم الدين لا تشك «فى أهمية عملية التقليد أو المحاكاة فى تعلم اللغة ، وبصفة خاصة خلال المرحلة الهامة التى يتم فيها تحول عملية المناغاة العشوائية

إلى كلمات لها معنى . ويكفى دليلا على أهمية عملية التقليد أن كل طفل يتعلم اللغة التى يســمعها من المحيطين به أى لغة الأم»[١٠] وعبدالمجيد سيد أحمد منصور يرى أن اكتساب اللغة ونموها يعتمد على التقليد[١١] . هذه أقوال وآراء لا نملك لها ردا ولا قبولا بالكامل ففيها نسبة ما من الصحة والصدق من واقع المشاهدة والمنطق أيضاً ، فالبيت الذى تدور فيه أو تسوده لغة مهذبة فى كل مستوياتها ، من المعقول أن يتكلم أطفاله نفس اللغة أو قريباً منها . والدراسات العلمية المختلفة «تدل على أن أطفال البيئات الاجتماعية الاقتصادية الممتازة يتكلمون أسرع وأدق وأقوى من أطفال البيئة الاجتماعية الدنيا»[١٢] والسبب - فيما يبدو - هو أن أصحاب البيئة الأولى نالوا نصيبا جيدا من التعليم انعكس على لغتهم بالتهذيب ثم حاكاهم أطفالهم بخلاف الثانية . وسبب آخر هو أنهم استشعروا امتياز بيئتهم فأرادوا أن تمتاز لغتهم أيضا . وما يهمنا أن لغة الأبناء ماثلت لغة الآباء محاكاة من أولئك لهؤلاء . ولهذا فتوظيف نظرية التقليد فى اكتساب الفصيحة واستعمالها هو من أقرب وأيسر ما يتيسر من الوسائل المعلومة إذا ما حاولنا نحن الكبار التحدث بها أمام الطفل أو الناشئ ،

وشجعناه، بالطرق التى يفهمها ويتقبلها، على استخدامها استخداما ينهض له التقليد ويكفيه . نقول هذا لأن فى اللغة جوانب معقدة ودقيقة يبعد أن تتحقق بمجرد التقليد مثل الجوانب المتعلقة ببناء جمل أو تعبيرات غير متناهية وذات عناصر لغوية فى حكم القواعد المتواضع عليها . ولعله لهذا ونحوه جاءت نظرية تشومسكى التوليدية والتحويلية ، التي اهتزت بها نظرية التقليد فى اكتساب اللغة . تشومسكى يرى - كما يبدو - أن المسألة أكبر من أن نبسطها فى عملية تقليد ، أو شكل سلوكي مثل أية عادة من العادات . فهذا الاكتساب لنظام قواعدى لغوى معقد لا يجعلنا نطمئن إلى تفسيره بالمحاكاة أو بعملية سلوكية . إنه نتاج قدرة أو ملكة عقلية فطرية عند الانسان . وهذه الملكة العقلية هى التى تُكَوِّن ما يسميه تشومسكى «الكفاية اللغوية» أى الملكة اللغوية . وتُحدَّد الكفاية أو الملكة اللغوية بأنها «المعرفة الضمنية بقواعد اللغة التى هى قائمة فى ذهن كل من يتكلم اللغة»(١٣) ونحن نلجأ إلى هذه القواعد الكامنة ضمن كفاياتنا اللغوية كلما استعملنا اللغة . وعلى هذا فالكفاية اللغوية هى التى توجه عملية الأداء الكلامى أى استعمال اللغة. وهذا الأداء الكلامى «بمنزلة

الانعكاس المباشر للكفاية اللغوية» [١٤] وتأسيساً على هذا نستطيع القول : إنه بقدر ونوع ما يُكَوِّن عقلُ الإنسان من كفاية لغوية يَكُون أداؤه الكلامى أو استعماله للغة . وهذا يعطينا تنبيها إلى قوة فعل ما نُسمعه للناشئ ، وقوة أثره ، وتنبيها آخر إلى أن نُسمعه اللغة التى نود أن يؤديها أو يستعملها فى حياته ، ثم حثاً على أن نقدم له الفصيحة الميسرة حتى تتكون كفايته أو ملكته اللغوية من أنظمتها الصوتية والنحوية والصرفية والتركيبية والدلالية . وعندئذ تكون آليته اللغوية التى يمتلكها هى آلية هذه الفصيحة بخلاف ما لو قدمنا له العامية فستكون آليته اللغوية آلية العامية . وعلى هذا فملكة الانسان العقلية المختصة باللغة - إذا صح التمثيل - هى مثل الحاسب الآلى له مدخل ومخرج . من المدخل يذهب ما يسمعه (الإنسان) إلى هذا الحاسب فيحلله ويختزن قواعده ويُخرج من جنسه لغته . فإن كان دخل عامية خرج مُنتَجٌ عامى وإن كان دخل فصيح خرج فصيح ، على أن هذا الحاسب لا يقبل دخول ما لم يناسب قدرته . ومع هذا فالأفضل الانتباه إلى هذه المسألة فلا نتعامل مع الطفل إلا بلغة تناسب عمره الزمنى وتنطق بها بيئته قبلنا أو معنا فى الأكثر .

هذه نقاط من نظرية الألسنية التوليدية والتحويلية فى اكتساب اللغة ، حاولت أن أوظفها فى ما نحن بصدده من دعوة إلى ممارسة الفصيحة الميسرة واستعمالها لغة حياة يومية . وليس المهم أن نأخذ بنظرية التقليد أو نظرية تشومسكى فى ما يتعلق باكتساب اللغة . المهم أن نستثمرهما فى إضاءة قضيتنا . والمهم أيضا أن نعرف أن النظريتين كلتيهما تلتقيان فى أنه لا غَناء عن المحيط فى عملية اكتساب اللغة . إذا تكلم الأب والأم وبقية أفراد الأسرة بلغة عربية أكثر تهذيبا ونقاء وأحاطوا طفلهم بها ، ثم استمرت العملية فى المدرسة وما يمكن خارجها فإن براعم للفصيحة الميسرة لابد أن تظهر فتنمو . فكلما ازداد نطاق محيط بيئة هذه الفصيحة ازداد نموها . على أن الأسرة بصنيعها هذا مع طفلها تسهم فى العملية التربوية التعليمية من الأساس حين تقدم له جرعات لغوية من جنس ما سيقدم له فى المدرسة فلا يُفاجأ بلغة غريبة كل الغرابة عنه . بل إنها تقدم له إحدى أهم الأدوات التى تجعله قادراً على الاستفادة من التعليم .

فى الصف الدراسى :

إذا كان للبيت والأسرة مهمة لاتنكر ، من ناحية زمنية على الأقل ، فى ممارسة الفصيحة واستعمالها فإن مهمة المدرسة والجامعة لا تقل فاعلية إن لم تكن أكثر . المدرسة ستستلم الرسالة بعد البيت ومعه . ولهذا فهى حلقة استمرار واتصال وتفاعل وتكامل فى العملية . بل إن ما لا يقدر عليه البيت بسبب أمية أهله - مثلا - ينبغى أن تنهض به المدرسة لأن بعض شروط الممارسة تتهيأ فيها . فبيئة المدرسة علمية ، والطلاب والطالبات يدركون ويدركن هذا . والمدرسون والمدرسات متعلمون ومتعلمات ويفترض قدرتهم وقدرتهن على التحدث بالفصيحة الميسرة بل بالفصحى وَفق المادة والمدرس . والمدرسة هى المكان التعليمى الرسمى لا البيت . وفى المدرسة يكون الفتى أو الفتاة أكثر وعيا باللغة وبأهميتها أداة للتحصيل وتوظيفه . كل هذه عوامل تسوغ وتسهل ممارسة الفصيحة الميسرة وتساعد على إحلالها لغة تفاهم وخطاب فى المدرسة والجامعة على أن تتوافر شروط أخرى لا تتم العملية إلا بها. ولعل ما يتعلق بالمدرس من هذه الشروط أو العوامل يأتى فى مقدمتها . والمدرس، سواء كان مدرسا للغة

العربية أو لغيرها، مطالب بأن يلتزم الفصيحة فى محاضرته أو شرحه لأن التزامه بها زمن المحاضرة هو بمنزلة تطبيق يستفيد منه طلبته. وما سوى هذا من أوقات ومناسبات أى فى المحادثات العادية فالفصيحة الميسرة جائزة مقبولة في رأيي . المدرس فى الغالب قدوة لطلبته ، فإن تحدث عربية فصيحة جميلة آسرة بسهولتها وسلاستها ورشاقتها ودقتها وثرائها الفكرى ، كبر فى عيون طلبته وحبب إليهم هذه اللغة وأحسوا رغبة فى استخدامها وتطلعا إلى التمكن منها، أما إن تحدث بالعامية أو بلغة متشدقة متفاصحة عفى عليها الزمن أو ركيكة متهافتة مُغْثية ، تضاءل فى أنظارهم ، وكرّه العربية لهم، ونفرهم منها . عدم استخدام الفصيحة فى التدريس جناية لا على اللغة والأمة فحسب وإنما على الفكر أيضاً؛ لأن الموقف موقف فكر ومعرفة وأداتهما الصحيحة القادرة على التوصيل والاستقبال معا هى الفصيحة لا العامية ، فهذه لا تستطيع النهوض بهذا الفكر ودقائقه وإشراقاته . ولأهمية اللغة فى التدريس أوصت بعض المجالس القومية فى بعض الدول أن يعد كل مدرس نفسه لتدريس لغته الأم ، كالمجلس القومى البريطاني - مثلا - فقد أوصى أن يعد كل مدرس نفسه لتدريس اللغة

الانجليزية . ويعنى هذا ضمنا أن يتمكن كل مدرس لأى مادة من اللغة الانجليزية ، وأن يجيدها إجادة تمكنه من التحدث بها أمام طلبته صحيحة سليمة من الأخطاء والانحرافات والعيوب الصوتية والتركيبية والصرفية والدلالية والنحوية .ولاعُذر لمن يتسامح من المدرسين فى لغة تدريسهم فيستخدمون العامية أو خليطا منها ومن لغة أخرى أجنبية . وإذا كان السبب عجزهم عن الفصيحة فهناك أكثر من طريقة للعلاج . هناك التعليم الذاتى من خلال كتب اللغة العربية التى وضعت لهذا الغرض . وهناك كتب الأدب العربى نثره وشعره ففى كثرة القراءة فيها ما يهذب اللغة وينميها ، ويخلق ذائقة جمالية للابداع . وهناك الدورات التى تعقدها مراكز خدمة المجتمع فى الجامعات .

وتتصل بالمدرس طريقته فى تدريسه فطريقة الحفظ والإلقاء الخطابى والتلقين بتقديم المعلومة جاهزة دون إشراك الطالب فى التوصل إليها لا تأتى إلا بنتائج عكسية . المجدي مد جسور الحوار والمناقشة مع الطلاب حتى يكونوا عنصرا فاعلا فى عملية التعليم والتعلم وحتى يعتادوا استعمال اللغة . والمجدي تهيئة الفرص لهم حتى يمارسوها سواء بالحوار والمناقشة كما ذكرت أو من خلال

التعبير الشفهى الذى أرى أن يُعاد له اعتباره بطريقة يهتدى بها الطالب والطالبة إلى نوع اللغة الشفاهية التى تناسب عصرنا حيوية وواقعية وسرعة وبعداً عن التعقيد والتحذلق . اللغة العربية فى المنهج الدراسى ليست مادة للحفظ والاستظهار فالامتحان . هى مادة للترسيخ والتأصيل . وإذا فهمنا أو فهم الطالب غير هذا فهي مسئوليتنا قبل أن تكون مسئوليته . وتعليم اللغة العربية ينبغى أن يتضمن مفهوم اكتساب اللغة كما مر بنا فى موضعه لا مجرد تعليمها أو تعلمها لأن الاكتساب يخلق وعيا باللغة المنطوقة ويوسع دائرتها. إننا نعقد على المدرِّسة والمدرس ومن فى مثل موقعهما آمالا فى النهوض بأحمال ثقيلة فى هذا المشروع. وربما واجههم شئ أشبه بشق الصخور وقطعها فى الطريق . وواجهوا معاناة نفسية وإحباطات وتحديات ، لكن الإيمان بالهدف وبالوصول إليه يوجد صمودا فى حجم المعاناة والإحباطات ، واستجابات فى مستوى التحديات . ومما يفيد هنا استثمار الفرص والمناسبات فى توعية الطلاب بالفصيحة الميسرة وأهميتها ونوعها الذى نتصوره مقبولا ومعقولا للتحدث بها ، وإقناعهم بصلاحيتها لهذا التحدث ، وتشجيعهم عليه ولو تدرجا.

ولا ينبغى أن تغيب القراءة عن أذهاننا . وكل المهارات اللغوية لازمة للغة لكنى أقدم ما أراه لصيقا بمهارة التحدث . طلابنا ضعفاء لأن من الأسباب أنهم لا يقرأون . ولغتهم ركيكة لا تسعفهم فى التحدث لأن من الأسباب أنهم لا يقرأون . وما يجدى فى هذا هو قراءة النصوص الأدبية الرفيعة لغة وأسلوبا ومضمونا وحفظها ، النصوصِ الرشيقة لغة وأسلوبا، الشهيةِ إلى القلب مضمونا . الأساليب والمفردات التى جازها الوقت لا حاجة للطلاب غير المتخصصين أو الهاوين بها . والمضامين والأغراض التى دفنت مع أهلها لا مسوغ لنبشها إلا للمتخصصين من علماء آثار اللغة والأدب . ومن خلال القراءة «الماهرة» ، إلى جانب ما يسمعه الطالب من تطبيق قواعدى فى لغة مدرسه، يقوم بعملية رصد وتخزين استيعابى لقواعد اللغة المختلفة فيتأسس عنده أو يرتسم فى خياله - كما يقول ابن خلدون - ملكة اللسان العربى أو المنوال الذى ينسج عليه لغته . وليت أنّا ندرس جدوى تكثيف مادة القراءة فى مرحلة التعليم الأولى (الابتدائية) بدلا من النحو الذى أقترح النظر في جدوى تأجيله إلى المرحلة المتوسطة والثانوية والجامعية ثم لا نُدرِّس منه إلا ما هو ضرورى لاقامة اللغة بعيدا عن المعقد وما

لا يرد إلا نادراً فى لغة الكتابة أو الخطاب ودون هوامش إعرابية لا ضرورة لها فليس الإعراب مطلوبا لذاته وإنما هو مقياس استيعاب ، وهناك مقاييس أخرى تغنى عنه كأن نطلب من الطالب تكوين جملة ما فإن جاءت صحيحة فهو المطلوب وإن جاءت خطأ وضحنا الطريق إلى تصحيح هذا الخطأ. ويمكن السؤال عن سبب الرفع أو النصب أو الحذف مثلا دون «أعرِبْ» . فالإعراب حسب خبرتى والاستبانات التي عملتها ، هو من ألد أعداء الطلاب وهو أول ما ينفرهم من مادة اللغة العربية والنحو بالـذات . ولعلى بعدت - بسبب الإعراب - عن النحو الذى اقترحت دراسة تأجيله إلى مرحلتى المتوسطة والثانوية، فأنا عائد إليه لأوضح أن هذه القراءة المكثفة عوضا عنه فى المرحلة الأولى سترصف طريق الطلاب نحوه . ستجعلهم مهيأين لاستيعابه لأن غرابته زالت من خلال ما قرأوه وما سمعوه فى لغة التدريس السليمة . هذا يعني أننا قبل أن نضع الطالب في «سياق» النحو ونفاجئه به نضعه في سياق مادة هذا النحو، نجعله في داخل المنوال أو الإطار الذي يدفعه إلى التساؤل الراغب في معرفة أسباب مايطرأ على بنى الكلمات ونهاياتها. وبهذا نحقق شيئاً طَبعياً هو وضع الحصان أمام العربة

بوضع الطالب في سياق النحو قبل تدريسه له قواعدَ وقوانين . والمرجح أن امتلاك منوال شيءٍ ما يحبب إلى الإنسان هذا الشيء ويسهله عليه. وعلى هذا ربما يكون من أسباب نفور الطلاب من النحو عدمُ تهيئتهم له بما يكفي من مادة قرائية وسمعية تحرضهم -كما قلت- على التساؤل عن أسباب هذا التلون الحركي والحرفي في نهاية الكلمة. وعندها نحقق خطوة أراها مهمة في تعلم النحو وتعليمه وهي إيجاد الحافز ، وخطوةً مهمة أخرى هي تكوين «الكفاية اللغوية» التي سبق ذكرها أثناء الحديث عن نظرية تشومسـكي التوليدية التحويلية. وبخاصة أن هذه « الكفاية اللغوية» نتيجةُ معرفة ضمنية فطرية -لاتعلمية- لقواعد اللغة من خلال اللغة نفسها،أي السياق الذي يوضع فيه الطالب بالقراءة والسماع. وإذا تيسر للطالبِ في المرحلة الإبتدائية أن يتلقى جرعاتٍ كافيةً من النصوص قراءة وسماعاً - تيسر له أن يكتشف بنفسه طبيعة لغته وجغرافيتها ومنطقها وقواعدها، أو أن تسهم -على الأقل- هذه النصوص في تيسير تعلم هذه الأشياء . ولا ننسى أن قواعد العربية استنبطت في الأصل من النصوص.

ويخطر فى الذهن ونحن مع هذه الجزئية من البحث قضية

التعريب . وقد كَتب فيها كثير من المختصين والمهتمين . ولست أعرضها لأضيف جديدا حاسما وإنما لانعكاسات التعريب الإيجابية على الفصيحة التى نرى جدوى دورانها على الألسنة العربية . لكن المؤسف أن قضية التعريب لا تزال حية. وجل الكليات العلمية فى العالم العربى لا تزال تُدرِّس العلوم بغير العربية رغم ما قيل، وماكتب من بحوث ودراسات ونداءات ، وما حرر من توصيات كلها تدعو إلى إحلال العربية محل الأجنبية. ويظهر أن القضية معقدة بشكل ما ، ويقف فى طريق حسمها سبب ما بل أسباب بعضها معلن ويُركز عليه وهو قصور العربية عن أن تنهض بهذا الحمل العلمى . ويبدو أن فكرة القصور هذه ترسخت بالتزامن مع عزل اللغة العربية عزلا تاما عن تدريس العلوم الحديثة التى فرض المستعمر دراستها فى مصر بلغته كما تقول عائشة عبدالرحمن «بنت الشاطئ» [١٥] ثم انتقلت الفكرة إلى بقية البلدان العربية التى تدرس بغير العربية (الانجليزية أو الفرنسية) والواضح أن الفكرة مزعومة من أساسها . والذين صدقوها هم ما بين سليم النية أو ضعيف فى عربيته، عاجز عن استخدامها فى التدريس فهو يرمى عجزه عليها ، أو مشكوك فى طويته فهو لا يريد للعربية أن

تنهض وتزدهر . وإلا فكيف نرمى العربية بالعجز وقد مر بها تجربة فى عصورها القديمة أيام العباسيين فجازتها بنجاح ؟! وكيف نرمى العربية بالقصور وقد استوعبت جهود العلماء والهيئات فى تعريب العلوم الحديثة ومصطلحاتها ، كما استوعبت مؤلفات أساتذة طب وكيمياء وفيزياء ؟! وكيف تعجز العربية وهناك تجربة حية للتدريس بها فى الجامعة السورية ، وجامعة بغداد ؟! وكيف تقصر العربية وهناك لغات لا تفوقها فى الأقل نهضت بما أسنده أهلها إليها من تدريس العلوم الحديثة بها ؟! لا إخال العجز والقصور إلا فينا نحن أبناء العربية . عجز عن إدراك قيمتها فى قوة وجودنا . وعجز عن حبها وبناء علاقة متفاعلة معها ، وعجز عن أدائها بسبب عدم تمكن منها فالأمر هو كما يقول ج. ڤندريس : «والواقع أننا لا نعلم إطلاقا لغة قد قصرت عن خدمة إنسان عنده فكرة يريد التعبير عنها. فلا ننصتْ إذن إلى أولئك المؤلفين العاجزين الذين يحملون لغاتهم مسئولية النقص الذى فى مؤلفاتهم ، لأنهم هم المسئولون على وجه العموم عن هذا النقص»[١٦] فلماذا إذن الإصرار على استمرار التعليم والتأليف والبحث في العلوم بلغات أجنبية ؟ لماذا لا نخوض التجربة بعضنا يسند بعضا ، بعضنا يكمل بعضاً ،

بعضنا يضئ لبعض ، خطؤنا يصنع صوابنا ؟! وبهذه الطريقة تتكامل (لا أقول تكتمل) التجربة وتقْوى وتثرو . لماذا لا نبدأ وقد «أثبتت جميع الأبحاث النفسية ، والاجتماعية ، والتربوية ، أنه لا يجوز تدريس مطلق علم من العلوم بغير اللسان القومى هذا كى لا تضاف عقبة فهم اللغة غير القومية على عقبة فهم المادة الفكرية»؟![١٧] ولماذا لا نبدأ ومنظمة الصحة العالمية أوصت - حسب علمى من خلال ندوة تلفازية - بتدريس الطب وعلومه باللغة القومية أو الوطنية. ومنظمة اليونسكو نبهت - فى توصية - «بأن العلاقة أساسية بين لغة التعليم، ولغة المنزل . وهى لغة الشعب ، اللغة الأم ، ولها علاقة بالفهم والاستيعاب . فاللغة ليست أداة للكلام فقط بل هى أداة التفكير أيضا»؟![١٨] والمؤكد أن المنظمتين لم تقدما توصيتيهما إلا بعد دراسات وتقارير واستنتاجات تؤكد أن صالح هذه العلوم والأمة كليهما هو فى توظيف اللغة الأم فى التعليم. بعض وجودنا يأتى من لغتنا وبعض هويتنا يأتى من لغتنا وبعض تقدمنا تسهم به لغتنا مثلما تقدُّمنا يسهم فى تقدم لغتنا . فلماذا لا نفك عن هذه اللغة بعض أغلالها ؟! ولماذا لا نطلق ساقيها للانطلاق وارتياد عوالم جديدة إنْ فى النطق وإن فى

الكتابة؟! ولماذا لا نعتصر طاقاتها ، ونفتق أكمامها عن إبداعاتها العلمية ؟! فكل خطوة نخطوها فى هذه السبيل تقربنا من الفصيحة الميسرة. أليس التعريب استرداداً لما فقدته العربية من الثقة فيها ، وهى إيجابية تولد إيجابية أخرى هى الثقة فى اللغة التى نطمح إلى التحدث بها . وأليس التعريب يوسع نطاق التعامل مع اللغة السليمة المنطوقة فى عشرات الكليات العلمية العربية ، وهو موقع جديد تسترده من الأجنبى وينضاف إلى مواقعها فى معركتها مع العامية ؟ نعم . وليعم التعريب الشركات والمصارف والمستشفيات وغيرها مما يمكن ويجب تعريبه ولو تدرجا . والغريب العجيب أنه فى الوقت الذى تُوَجَّهُ فيه الدعوات إلى تعريب التعليم الجامعى فى العالم العربى «يُقْدِمُ» مجلس وزراء إحدى الدول العربية على إقرار مشروع قدمه وزير تربيتها يقضى «برفع إلزامية التعليم باللغة العربية فى المرحلة الابتدائية ، وترك الحرية للمدارس الرسمية للتعليم باللغة التى تناسبها» [19] لا أريد هنا أن أرفع تساؤلات عن مدى قدرة اللغة العربية وخرافة عجزها ، فقد طرحت كثيرا فى سياق هذا البحث وفى غيره. إنما أتساءل : لمصلحة من يحصل مثل هذا ؟! ألمصلحة تلك الدولة العربية ؟! ألمصلحة الأمة العربية ؟!

وأين جامعة الدول العربية ومنظمتها المعنية من هذا المشروع ؟! وأين الهيئات العربية لحقوق الانسان ؟! ولماذا لا تتدخل حتى تضمن للنشء العربى أن يتلقى علومه بلغته لا بلغة غريبة عنه ، دخيلة عليه فى مكان ليس من خصوصياتها وإنما من خصوصيات اللغة الأم؟! ألم يدرك من فكر فى المشروع ، ومن قدمه ، ومن أقره أن معنى هذا إزالة الغرابة عن اللغة الأجنبية على حساب اللغة العربية فإلفُها فتحولُها إلى لغة للاستخدام فى الحياة العامة ، أو جزء من هذا الاستخدام ، وحينئذ تتوسع الجبهة الأخرى فى الصراع مع العربية - إلى جانب الازدواجية - وهى الثنائية ؟!

لا يكفى أن نطرح القضية على مستوى الهيئات العلمية والثقافية وإنما على المستوى الاجتماعى، على مستوى المجتمعات العربية كلها ، فهذه قضية تمس الكيان والوجود والهوية .

فى وسائل الإعلام :

يقول الطيب البكوش : «لعله لا يوجد ميدان يضاهى الميدان الإعلامى فى التأثير على المستوى اللغوى وتوحيد اللغة العربية وتطويرها» [٢٠] وهذا من الأقوال التى تصيب الحقيقة . فالإعلام

بسلطته (إلى حد التسلط أحياناً) وتقنياته وتنوعه واختراقاته يسهم بقوة فى تشكيل أفكار الناس وصنع توجهاتهم . ويسهم فى تشكيل لغاتهم وتحول مستوياتها . ودوره جليل خطير على اللغة وَفق ما يُرسم له من سياسة لغوية . ولهذه الأهمية التى يملكها الإعلام يُعد أحد المنطلقات الفاعلة ليس فى نشر الفصيحة الميسرة فحسب وإنما فى التوعية بها والدعوة إليها نظريا وعمليا ، بل إن هذا يعد واحدة فى منظومة الرسالات التى تعهد الأمة بها إليه . ومن أجَلِّ هذه الرسالات خدمة اللغة برعايتها وصيانتها فى نطقها وقواعدها ودلالتها وبنائها فلا ينزل إلى العامية كما هو حاصل الآن فى كل الإذاعات والتلفازات العربية - وفى بعض المجلات والصحف - حتى لتكاد تغلب هذه العامية على برامجها باستثناء الأخبار والتعليقات ونحوها . إن من صالح الأمة ولغتها أن ينتهى هذا الوضع فيستمر الإعلام بالفصيحة فى ما اعتاد نشره بها وفى ما ينبغى أن يُنشر بها . وأما سوى ذلك من لقاءات وحوارات ومقابلات وبرامج شعبية بوجه خاص فلا ضير - فى رأيى - إن جاء بالفصيحة الميسرة لأنها هنا لغة تفاهم وخطاب يومى يمكن التسامح فى بعض عناصرها إلى درجة لا تنزل بها إلى الدارجة وإنما

تظل بها قريبة من مستويات فصيحة الكتابة . وربما ينحرف غير المذيع ، فى حديثه ، أثناء مقابلة إذاعية أو تلفازية ، عن الفصيحة إلى العامية لأميته مثلا ، لكن حدوث هذا من المذيع انحراف بالرسالة التى عهدنا بها إليه . وعدم وقف تيار العامية الذى يخلخل نوافذ الإعلام العربى مسئول عنه الدول ووزراء الإعلام والمذيعون والمذيعات ورؤساء تحرير الصحف والمجلات . واستمراره يعنى ترسيخ الازدواجية اللغوية التى يدينها أكثر من باحث ولغوى بالتسبب فى ضعف مستوانا اللغوى . واستمراره يعنى إعاقة الجهود التى تبذل والاقتراحات التى تطرح لعلاج هذا الضعف والازدواج اللغوى معاً . ما قدمه الإعلام وما يزال يقدمه للعربية من خدمات لا ينكر . ولا نرضى أن يمس ما قدمه نقيصة العامية . لهذا يبقى الأمل كبيرا فى أن يصر الإعلام على استمرار رعايته للعربية وأن يحتضن الفصيحة الميسرة التى نتصورها بديلة للعامية فبواسطته تتحقق لها أشياء يصعب أن تتحقق مع سواه ، وخاصة منه الإعلام المسموع أو المسموع المرئى لأن المفترض فى المكتوب (لغة المجلات والجرائد) أن لا يكون إلا بالفصيحة ، ولأن المسموع السليم يصحح النطق ويوحده ، ويُعدّل ما انحرف من المستوى

الصوتى فى العربية .«وفى المجال الصوتى - كما يقول محمود فهمى حجازى - تعد الإذاعة من العوامل الحاسمة ، فالنطق الذى يرتضيه مذيعو الإذاعة يؤثر فى آلاف المستمعين ، ولذا تهتم دول كثيرة فى العالم المعاصر بكيفية نطق المذيعين وتدريبهم تدريبا صوتيا دقيقا» [٢١]. فالإعلام مدرسة فى هذا وفى غيره لخاصية السماع تلك . «والسمع أبو الملكات اللسانية» كما يقول ابن خلدون . وإذا كانت ملكة اللغة تغيرت - كما يقول ابن خلدون أيضا - «بما ألقى إليها السمع من المخالفات التى للمستعربين ... ففسدت بما ألقى إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع» [٢٢] فإن اعتياد سماع اللغة الصحيحة يصححها على الألسنة . والعرب كانوا يرسلون أبناءهم أيام الأمويين إلى البادية ليتلقوا العربية السليمة بالسماع . أفليس ممكنا أن يعيد الإعلام المسموع هذا الدور وينهض به إلى جانب هيئات التدريس وما تقدر عليه الأسرة ؟ بلى ، إذا صدقنا بالفكرة ، وآمنا بقيمتها وإمكانيتها ، والتحم مع ذلك رغبة عميقة وحماسة هادئة لتنفيذها . عندها يحقق الإعلام للفصيحة غير قليل من المنافع .

الإعلام ينشر الفصيحة الميسرة - مثل الفصيحة - ويعممها لغة خطاب مشتركة بين العرب وبخاصة الأميين منهم ويرقى بعاميتهم مفردات وتراكيب وطرق نطق ويرتفع لهذا مستوى لغتهم . وقد سجل لنا محمد الفاضل بن عاشور ما قامت به الإذاعة التونسية بعد تأسيسها عام ١٩١٨م من وظيفة فى هذا المجال فقال: «ولما شاعت أحاديث المذياع فى أواسط الأميين كثرت ورود الألفاظ والتراكيب الفصحى على أسماعهم فألفوها ، وبذلك بدأت المفردات العامية تتناقص والمفردات الفصحى تكثر وصيغ النطق تعتدل حتى تطورت اللهجة العامية تطورا عظيما» [٢٣] وعن أثر الإذاعة يحدثنا أيضا عبدالعزيز شرف فيقول: «ولا يخفى أثر الإذاعة فى الارتفاع بالمستوى اللغوى بين طبقات الشعب كافة . ولإنْ كانت الصحافة قد دفعت باللغة المشتركة خطوات واسعة إلى الأمام... فإن الإذاعة وهى صحافة مسموعة ستكون عظيمة الأثر فى زيادة الثروة اللغوية بين عامة الشعب وفى توحيد نطق المفردات وفى التقريب بين اللهجات . ليس من المستبعد أن تنجح فى إحلال الفصحى المبسطة (لعله يقصد نحواً مما ارتضيت له «الفصيحة الميسرة» . محل العامية السائدة ... ذلك أن لغة الإذاعة هى لغة

الاتحاد الحقيقى بين لغة الكتابة ولغة الحديث» [٢٤] .

ولعل من أسباب تشظى اللغة وتحولها إلى لغات أو لهجات هو غياب التواصل. لكن الإعلام بتقدمه السريع الهائل ، وتحويله العالم الكبير إلى عالم صغير ، واستقطابه للجماهير الغفيرة ألغى هذا الغياب وجعل الناس بهذه الإذاعات المنتشرة ، وهذا الإرسال الفضائى التلفازى الذى يغطى الكرة الأرضية ويردد اللغة كل لحظة - جعلهم يتواصلون . ورغبة التواصل هذه تدفع الإعلام إلى اختيار لغة يفهمها الجميع . وهى فى العالم العربى الفصيحة أو ما يقاربها . من هنا تكون مهمة الإعلام فى تقريب اللهجات بعضها من بعض من ناحية ومن الفصيحة من ناحية أخرى . وهذا يخدم تحقق الفصيحة ، لأن تقريب اللهجات بعضها من بعض إنما هو انتقاء منها وتهذيب وتصحيح لها على منوال الفصيحة حتى ترتفع إلى مستوى الفصيحة الميسرة التي ستحل مكان هذه اللهجات، ولأن تقريبها من الفصيحة هو نحو من هذا ، وفى الوقت نفسه نفي لما فيها من مبتذل وساقط ودخيل لا أصل له ولا يصلح أن يدخل فى سياق الفصيحة أو نسقها. وبهذا نكون فى حالة لغوية لا تباعد فيها بين المنطوق والمكتوب وإن كان هناك شئ من اختلاف

يعد طبيعيا ولازما بين المستويين .

ولأهمية الإعلام من حيث التأثير فى اللغة سواء بنشرها أو الرقى بها وتصحيح مسارها ، يبقى مهماً أن نأتي على بعض السمات التى أراها لازمة للغة الإعلامية . وعلى افتراض أن الإعلام سيرقى بالعامية إلى الفصيحة سيكون لديه لغتان يتعامل بهما: الفصيحة والفصيحة الميسرة أما الفصيحة الميسرة فقد ذكرت شيئا من سماتها المهمة فى مكانها ، وجل ما سأذكره الآن يشملها. وأما الفصيحة فالمفترض أن تأتى سليمة فى جميع عناصرها النحوية والصرفية والدلالية والتركيبية ، أقول هذا لأن كثيرا من الأخطاء فى هذه العناصر شاعت على ألسنة المذيعين والمذيعات . ولا ينزه أحد عن الخطأ ، لكن كثرة الأخطاء لفتت الانتباه . والمفترض أن يكون المذيعون أقوياء فى ثقافتهم بعامة وفى لغتهم العربية بخاصة . وهم أنفسهم يدركون أن طبيعة عملهم تتطلب هذا وتلح عليه . المجدى أن تكون لغة الإعلام مثالا أو قريبة منه لخاصية التأثير التى يملكها هو ورجاله ونساؤه . لكن المؤسف أن لغة الإعلام تراجعت عن مستواها من الصحة والدقة اللغوية التى كانت لها . ولست بهذا أغمَط ما قدمه الإعلام

للعربية ، وهيأ لها من أسباب المرونة والحيوية والانتشار والانتصار، وما خلصها منه من زخارف ومحسنات وأحل محلها سهولة الأسلوب وانسيابيته . لكنا نطلب المزيد من العطاء وسلامته.

والأفضل للغة الإعلام أن تأتى إخبارية هادئة بعيدة عن الجلجلة والعبارات الرنانة الطنانة . لغة الإعلام تحدثية لا خطابية إلى حد أن بعض عنوانات البرامج أو أسمائها ومقدماتها الموسيقية توهمك بمعركة قادمة . وبعض المذيعين يوقعك فى هاجس بأنه فى منبر يخطب ناسيا أن ما يفصلنا عنه هو بضعة أقدام هى ما بيننا وبين المذياع أو التلفاز ! خطابية المذيع وجلجلة صوته تبدد جمال العربية وجلال بيانها وسحره وحلاوته. فلا أحلى ولا أروع ولا أبلغ تأثيراً من تعامل مع اللغة هادئ متذوق . ولست أقصد بهذا أن تنحو اللغة الإعلامية نحو الشاعرية . لا . لأنها لغة خبر وتحليل ومعلومة وتواصل معرفى مع المستمع . وهى لا تتحمل هذه اللغة الأدبية الشاعرة إلا فى بعض برامجها التى تناسبها .

والأفضل للغة الإعلام - أيضا - أن تتخلص مما يشوبها من سمات لم تعد مستوعبة فى العصر الراهن لأنها لا تنسجم مع ما

نفترضه يطبع حياتنا بالعلمية والواقعية والموضوعية وحسبان الزمن واغتنامه .

ومن هذه السمات المبالغة : المبالغة فى تضخيم الحدث أو المبالغة فى تهوينه إلى حد تجاهله أحيانا . والمبالغة تكون فى المضمون أحيانا وفى صيغة التعبير أحيانا أخرى . تستهدف المبالغة أحياناً ناحية دعائية لكن مدارك البشر لم تعد ساذجة بسيطة كما يتصورها المبالغون . ولهذا تأتى النتيجة عكسية برفض الخبر أو المقولة ، وباتهام العربية بخاصية المبالغة كأنها اللغة الوحيدة التى تحمل مظاهر المبالغة التعبيرية ، وكأنْ ليس ممكنا التعبير بلغة عربية واقعية متزنة تصف الحدث أو تسوق الخبر كما هو دون تضخيم وتهويل ومبالغة . ظاهرة المبالغة ليست فى العربية. هى فى طباع الناس ونفسياتهم والظروف التى تدفعهم (قسرا أحيانا) إليها . ولا أدرى كيف نقبل قولا مثل قول «شوبى» : «تتصف العربية بالمبالغة .... وإن المدارك العربية قد كيفتها المبالغة فأصبحت المغالاة خصيصة تطبع سلوك الفرد فى هجائه ومدحه وغزله وتربية طفله» [٢٥] لا أنفي المبالغة . نحن نبالغ كما يبالغ غيرنا وربما أكثر من غيرنا أو أقل ، لكن أن تكون هذه

المبالغة انتقلت إلينا من خصيصة فى لغتنا فهذا ما لا نقبله إلا بعد البحث والدراسة والاستيضاح من علم اللغة المقارن. وظاهرة المبالغة هى من أوضح سمات الشعر العباسى بخاصة ، فإذا كانت المبالغة صفة فى اللغة العربية فلماذا انفرد بها الشعر العباسى عن غيره ؟! لماذا لم تنتقل إلى الجاهلى والأموى والأندلسى وبقية شعر العصور الأخرى وقد كتب باللغة نفسها ؟! على أى حال هذا موضوع آخر . وموضوعنا هو أن المبالغة غير مقبولة ولا مجدية فى اللغة الإعلامية لأكثر من سبب ، لكن ما يهمنا هنا هو أن هذه المبالغة فى لغة الإعلام لا تخدم اللغة التى نأمل منه أن يسهم بطريقة سليمة فى نشرها لغة خطاب مشتركة .

شئ آخر من المجدى أن تتحاشاه اللغة الإعلامية . وهو ما أسميه - إن صحت التسمية - بالممارسات المجانية للغة . ففى هذه الممارسات تتجوف اللغة . تتحول طبلا ذا رنين فارغ لأنه لا يوحى بشئ له قيمة . لغة الإعلام التى من هذا النوع لا تحمل قيمة الصدق ولا حتى مؤشراته ، لأنها مُجرَّدُ بوق دعائى أو نفاقى انحرفت بسببه رسالة التوعية والتثقيف والتنوير وصدق القول فإنه «إنما تفسد اللغة وتنحط المقدرة اللغوية - كما يرى شكرى عياد -

عندما يتعود الناس الكذب فى استعمال اللغة . فكما أن الحياة الاجتماعية لا تستقيم إذا كان الكذب هو قاعدة التعامل ، فكذلك الحياة اللغوية - وهى أداتها الأولى - تضطرب وتفسد حين يتعمد الناس تحريف الكلم عن مواضعه» [٢٦] إذن لا داعى للكلمات التى لا تعنى ما تقول ، ولا للكلمات التى لا تقول شيئا ، ولا للكلمات التى تعرض حاجة فى نفس صاحبها . كلمات من هذا النوع تجلب نفورا من اللغة وصدوداً عنها ، وتضعف رابطة الإنسان بلغته مع أن المسئول غيرها . المسئول هم رجال الإعلام العربى ونساؤه . عليهم ترشيد هذا الكم الهائل من الكلام الذى لا يقول شيئا . وتصحيح مسار هذه الصفوف الطويلة من الكلمات التى لا تصل إلى شئ . جربنا كلمات التضليل والتعتيم الطنانة والنتيجة متاهة موحشة يختلط فيها السراب بالماء . إذا صحت لغة الإعلام ، وصدقت ، واستقامت ، ونقلها الأثير هادئة، متزنة ، متماسكة، ندية استقبلها الناس بقلوبهم وأحبوها وقلدوها .

هذه - فى رأيى - أهم منطلقات التحول نحو الفصيحة الميسرة . هى ينابيعها الرئيسة . ومظان إشراقها . وإذا ما قمنا بوصل لهذه الينابيع والإشراقات باستخدام الفصيحة الميسرة فى مقر

العمل وفيما يمكن من أماكن تلاقينا وتجمعنا منحنا لهذا التحول معنى وحياة وقيمة ، ولمنطلقاته تشجيعا وإحساسا بسمو الرسالة التى تقوم بها . أكرر مذكِّراً أن التجربة عمل بطولي وشجاع بمقياس انعكاساتها الإيجابية التى أوضحت، وبمقياس كونها صراعا مع المتأصل ، مع العادة والمألوف ، مع النفس ، مع توهم العجز ، ومع الخوف من المجهول . والتجربة ليست فردية . هى تجربة مجتمع بل أمة وفى هذا ثراؤها وتداعياتها وتجلياتها وتفاعلاتها المتنوعة .

العربية والإعلانات التجارية :

واضح ماتحظى به وسائل الإعلام من قوة تأثير في المتلقى قارئاً ومستمعاً ومشاهداً . والسبب هذا الانتشار الواسع لهذه الوسائل . وهذان (التأثير والانتشار) أمران نبها كلا من القطاعين الخاص والعام معاً إلى استثمار هذه الوسائل . ويأتي تسويق السلع بالإعلان عنها لوناً من ألوان هذا الاستثمار .

وقد أصبحت الإعلانات التجارية « الدعاية» إحدى مألوفات الجريدة والمذياع والتلفاز وغيرها. ومن المتوقع أن تزيد مساحة هذه الإعلانات وتأثيرها وبخاصة ماكان منها في التلفاز لجمعه الصورة

والحركة والصوت . لهذا، ولاعتمادها أحياناً على الصور المتحركة «الكاريكاتورية» ينجذب الأطفال إليها ويترقبونها في لهفة وشوق، ويرددون - كما يقول - أحمد محمد المعتوق « مايصحبها من أصوات أو مقاطع غنائية في فرح واغتباط »[٢٧]

وإذا كانت الشركات التجارية قد تنبهت إلى أهمية الإعلانات في التسويق فوظفتها واستثمرتها، فمن المجدي أن ينتبه المعنيون إلى تأثيرها في اللغة سلباً أو إيجاباً، لأن لغة الإعلانات إن كانت عامية هابطة كان تأثيرها سلبياً، وإن كانت صحيحة سليمة كان تأثيرها إيجابياً.

الإعلانات التجارية ولغتها جزء من البيئة اللغوية السماعية لاكتساب اللغة بل إنها من أهم مجالات هذه البيئة لما أشرت إليه من جاذبيتها للصغار. من هنا ينبغي أن تُوجَّه نحو لغة عربية تتراوح بين الفصيحة والفصيحة الميسرة، وألا يسمح بنشر أو إذاعة أي إعلان تجاري بالعامية؛ لأن هذه العامية ستكون - حتماً- عامية أحد المجتمعات العربية في الوقت الذي نتوق فيه إلى أن تذوب اللهجات في لغة عربية فصيحة موحدة، ولأن « التسويق والترويج للبضاعة الأجنبية لايعني بأي حال من الأحوال التسويق

والترويج للغة منتجيها [أولهجتهم] ولطابعهم الحضاري دون غربلة وتمحيص وانتقاء»[٢٨] ولأن في هذا تكريس للعامية أي للازدواجية اللغوية التي نشكو منها . ثم إن « أذهان الناشئين - كما يقول أحمد محمد المعتوق - تلتقط دون تمييز ودون تروٍّ أو فحص أو توجيه مضمون ، ومن هنا تنبع خطورة الإعلانات التجارية على لغة الجمهور، والأطفال منهم خصوصاً »[٢٩] وإذا ماتثبت اللفظ أو التركيب أو المعنى اللغوي بهذه الالتقاط صعب اقتلاعه. وسواء كان صحيحاً أم لا قول الجاحظ إن « اللفظ الهجين الردىء، والمستكره الغبى، أعلق باللسان وآلف للسمع، وأشد التحاما بالقلب»[٣٠] إلا أنه في سياق الإعلان التجاري وفي التلفاز خاصة متضمن لقدرٍ ما من الصحة . من هنا التأكيد مرة أخرى على توجيه لغة الإعلانات نحو لغة عربية سليمة، وتوظيف هذه اللغة واستثمارها في إثراء لغة المتلقى مفردات وصيغاً، وفي تصحيح تراكيبها ودلالاتها ونطقها حتى تصبح هذه الإعلانات رافداً خصباً من روافد اكتساب اللغة وتعلمها وبخاصة للناشئة .

هوامش

١- اللسان العربي ع : ٢٦ - ص : ٢٧ .

٢- النظرية الأدبية المعاصرة ، رامان سلدن ، ترجمة : جابر عصفور، ص ٢٠٤ .

٣ - قضايا ألسنية تطبيقية ص : ٧٨ .

٤- اللغة عند الطفل ص : ١٠١ .

٥- السابق والصفحة .

٦- السابق والصفحة .

٧- السابق والصفحة .

٨- فى قضايا اللغة التربوية ص : ٨٣ .

٩- اللغة والطفل ص : ٨٤ .

١٠- اللغة عند الطفل ص : ٢٧ .

١١- علم اللغة النفسي ص : ١٤٩ .

١٢- السابق والصفحة .

١٣- قضايا ألسنية تطبيقية ص : ٦١ .

١٤- السابق والصفحة .

١٥- لغتنا والحياة ص : ١٣٨ .

١٦- اللغة ص : ٤٢١ .

١٧- دفاعاً عن اللغة العربية ص : ٥٤ .

١٨- جريدة الشرق الأوسط ع : ٥٥٨١ الخميس ١٠-٣-١٩٩٤م ، ص : ١٧ .

١٩- السابق .

٢٠- من قضايا اللغة العربية المعاصرة ص : ٢١١ .

٢١- علم اللغة العربية ص : ٢٨ .

٢٢- المقدمة ص : ٥٤٦ .

٢٣- عن : من قضايا اللغة العربية المعاصرة ص : ٣٠٨ .

٢٤- اللغة الإعلامية ص : ٢٢٩ .

٢٥- من قضايا اللغة العربية المعاصرة ص : ٣٠٦ .

٢٦- اللغة والإبداع ص : ١١٠ - ١١١ .

٢٧- مجلة « الفيصل » عدد ٢٠٩ ، ذوالقعدة ١٤١٤هـ- أبريل (مايو) ١٩٩٤م، ص:١١١.

٢٨- السابق والصفحة .

٢٩- السابق والصفحة .

٣٠- البيان والتبيين ، جـ١، ص: ٨٦ .

خاتمة وتوصيات

الخاتمـــة :

لعل ما انتهيتُ إليه يقدم فائدة ، ويضيف جديدا فى ما يتصل بإشكالية «الفصيحة والعامية» التى بلغ الأمر بناويها أن نطلق عليها مصطلح «الازدواج اللغوى» فبعد تثبيت هذا المصطلح على حالة الفصيحة والعامية بعد أن كانت حائرة بينه وبين «الثنائية اللغوية» ألقيت نظرة على منشأه التاريخى وعوامل ظهوره معتمدا بشكل رئيس على ما سجله ابن خلدون فى مقدمته ، ثم نظرة على عوامل ترسيخه من الأسرة والمجتمع حتى وصل الأمر إلى اتضاح تأثيراته ليس على اللغة العربية الفصيحة وحدها وإنما على أهلها وفكرهم وإبداعهم .

وكانت ظاهرة الضعف اللغوى تُطرح ولا تزال . وبدا لي - مثل بعض الباحثين - أن الازدواج اللغوى ينهض واحدا من أسباب هذا الضعف فكان لا مفر من أن نلتمس لهذا الازدواج علاجا .
والازدواج اللغوى فى حقيقته تباعد ما بين الفصيحة وعاميتها إلى درجة أن أحد الباحثين - كما ذكرت ذلك فى موضعه من البحث -

يعدهما لغتين مختلفتين . وكان العلاج فى رأيى هو أن ندانى بين هذين المتباعدين لا أن ننفى أحدهما اكتفاء بالآخر حسبما أوضحت وأوردت من مسوغات . وكانت آلة المداناة ما أسميته «الفصيحة الميسرة» التى اقترحت ممارستها واستخدامها لغة خطاب مقابل الفصيحة لغة كتاب وثقافة وفكر وأدب ، ليصبح لدينا مستويان للغة طبعيان مقبولان بدلا من حالة «الفصيحة والدارجة» التى صيرها التباعد مشكلة .

ولهذا اجتهدت فى رسم صورة لهذه الفصيحة الميسرة وفى تبديد توهم عقبات ممارستها واستخدامها لغة تواصل يومي . ولست أعنى نفى هذه العقبات تماما وإنما نفي استحالة تجاوزها ، فربما تتضمن شيئا من الصعوبة لكن أهمية الموضوع من ناحية وما لممارسة الفصيحة الميسرة من مشجعات وفوائد من ناحية أخرى - كل هذا يجعل الصعب هينا . ثم أسلمَنا هذا كله إلى منطلقات ننطلق منها فى ممارسة الفصيحة الميسرة فكان البيت أو الأسرة والمدرسة والإعلام أهم هذه المنطلقات . وإذا عززها مقر العمل جاءت النتيجة أفضل .

في سياق الحديث عن منطلق «البيت» أكدت على أهمية

الأسرة من خلال نوعية اللغة التى تتعامل بها مع أطفالها على اعتبار أن البيت هو المدرسة الأولى للغة ، فيه يؤسس الطفل لغته ويكتسبها . وباعتبار الاكتساب جانبا مهما فى مجال تحصيل اللغة بالإضافة إلى تعلمها كان لابد أن نتحدث لا عن خلاف حوله فى ذاته وإنما حول تفسيره أهو بالتقليد والمحاكاة ؟ أم بالملكة اللغوية الفطرية ؟

وفى الحديث عن منطلق «المدرسة» أكدت على أهمية لغة المدرس سواء كان مدرسا للعربية أو غيرها . وتناولت التعريب وانعكاساته على المشروع الذى طرحته .

وألقيت تبعة كبيرة على الإعلام أثناء الحديث عنه منطلَقاً من منطلقات استعمال الفصيحة الميسرة وممارستها ، ففاعليته واضحة فى نشر هذه اللغة التى نطمح إليها ، وفى التوعية بها .

لقد تشعب بنا موضوع «الازدواج اللغوى بين الفصيحة والعامية» غير أنه - فى نظرى - تشعب منهجى منطقى حين أسلمتنا كل جزئية من جزئياته إلى الأخرى . والمؤمل أن تخدم هذه الجزئيات إشكالية الازدواج اللغوى مستقلةً ، وإشكالية تدنى المستوى اللغوى فى العالم العربى بوجه عام .

التوصيـــــــات :

تأسيسا على ما ورد فى البحث ، أو أوحى به ، أو ما يخدم اللغة العربية أقدم التوصيات التالية :

١- إنشاء «جمعية للغة العربية» تسندها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية أو كل جامعات المملكة أو مستقلة .

ويكون من أهدافها :

- تنمية البحث والفكر اللغوي وتشجيعهما استهدافاً لتنمية اللغة العربية وعلاج ظاهرة الضعف فيها.
- عقد ما يمكن من مؤتمرات وندوات وحلقات أو دورات دراسية فى مجال اهتمامات الجمعية .
- تقديم ما يمكن من استشارات ودراسات للقطاعات الحكومية أو الخاصة .
- أن تكون قناة تواصل بين المجتمع ومجامع اللغة العربية.
- الإسهام بالوسائل الممكنة المتاحة فى نشر الفصيحة بوجه عام ونشر الفصيحة الميسرة بديلة للعامية عن طريق توعية المجتمع بأهميتها وصورتها والطريقة السليمة لأدائها .

٢- جعل التعليم الابتدائى إجباريا إلى جانب الاهتمام الجاد

المتواصل ببرامج محو الأمية فمن إيجابيات انتشار التعليم أنه يساعد على تهذيب اللغة والرقى بها .

٣- النظر في جدوى تأخير تدريس النحو إلى ما بعد المرحلة الابتدائية (المتوسطة والثانوية والجامعية) والتركيز على مهارة القراءة وحفظ النصوص الأدبية الجميلة السهلة ، وعلى مهارة التحدث بلغة سهلة مهذبة لا تنقصها المرونة والسرعة . ففى هذا اكتساب للقواعد النحوية بطريقة أقرب إلى الطبعية، وتمهيد يُسهِّل استيعابها ويذلل عقباتها طالما أن صورتها، أو منوالها قد اكتسب عن طريق القراءة والسماع والحفظ والتحدث والكتابة .

٤- الإهتمام بلغة الإعلانات والدعايات واللافتات ، والبرامج الشعبية والرياضية ، وبرامج الأطفال بتوجيهها نحو الفصيحة أو الفصيحة الميسرة وفق الظروف والمواقف، ورفض ما هو مبتذل وسوقى .

٥- عقد دورات فى اللغة العربية لمدرسي غير العربية ممن لم يبلغوا مستوى كافيا فيها ، وبخاصةٍ مَن قطعتهم دراستهم فى الخارج عن التواصل والتعامل بالعربية قراءة وكتابة وتحدثا .

المصادر والمراجع

١- البيان والتبيين . أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . تحقيق/ عبدالسلام محمد هارون . بيروت ، ط ٤ ، لا . ت .

٢- تنمية اللغة العربية فى العصر الحديث (مجموعة دراسات الملتقى الرابع لابن منظور). تونس ، وزارة الشئون الثقافية، ١٩٧٨م .

٣- الثروة اللغوية للأطفال العرب ورعايتها . صباح حنا هرمز . الكويت ، دار السلاسل للطباعة والنشر ، ١٩٨٧م .

٤- دفاع عن الفصحى. أحمد عبدالغفور عطار. مكة المكرمة ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

٥- دفاعا عن اللغة العربية . د/كمال الحاج . بيروت ، منشورات عويدات ، ط ١، ١٩٥٩م .

٦- دلالة الألفاظ . إبراهيم أنيس . مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٣ - ١٩٧٦م.

٧- شئون لغوية . د/ محمود أحمد السيد. بيروت ، دار الفكر المعاصر . ودمشق ، دار الفكر ، ط ١ ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .

٨- علم اللغة العربية : مدخل تاريخي مقارن فى ضوء التراث واللغات السامية . د/محمود فهمى حجازى . القاهرة ، مكتبة غريب . لا . ت .
٩- علم اللغة النفسي . د/ عبدالمجيد سيد أحمد منصور . الرياض ، عمادة شئون المكتبات - جامعة الملك سعود ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
١٠- الفصحى ونظرية الفكر العامى . د/مرزوق بن صنيتان بن تنباك . الرياض ، مطابع الفرزدق التجارية ، ط ٢ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
١١- فصول فى فقة العربية . د/رمضان عبدالتواب . القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ط ٣، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م .
١٢- فقه اللغة العربية وخصائصها . د/ إميل بديع يعقوب . بيروت ، دار العلم للملايين ، ط ٢ ، نوفمبر ١٩٨٦م .
١٣- فى قضايا اللغة التربوية. د/ محمود السيد. الكويت، وكالة المطبوعات، لا.ت.
١٤- قضايا ألسنية تطبيقية - دراسات لغوية اجتماعية نفسية مع مقارنة تراثية . د/ ميشال زكريا . بيروت ، دار العلم

للملايين ، ط ١ ، يناير ١٩٩٣م .
١٥- قضايا ومشكلات لغوية . أحمد عبدالغفور عطار . جدة ، تهامة ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م .
١٦- قضية التحول إلى الفصحى فى العالم العربى الحديث . د/نهاد الموسى. عمّان، دار الفكر للنشر والتوزيع ، ط ١، ١٩٨٧م .
١٧- كتاب نقد النثر . أبى الفرج قدامة بن جعفر وقد نسب أيضا إلى ابن وهب أبى الحسن اسحاق بن ابراهيم بن سلمان . دار الكتب العلمية . بيروت ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .
١٨- اللسانيات واللغة العربية . أشغال ندوة اللسانيات واللغة العربية ، تونس ، الجامعة التونسية . مركز الدراسات والابحاث الاقتصادية والاجتماعية ، ديسمبر ١٩٧٨م .
١٩- اللغة . ج .ڤندريس . ترجمة/ عبدالحميد الدواخلى ومحمد القصاص . لا . نا، لا . ت .
٢٠- اللغة الاعلامية . د/ عبدالعزيز شرف . بيروت ، دار الجيل ، ط ١ ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م .
٢١ - اللغة العربية وتحديات العصر . ريمون طحان ودنيز بيطار طحان . بيروت ، دار الكتاب اللبنانى ، ط ٢ ، ١٩٨٤م .

٢٢- اللغة العربية والفكر المستقبلي. عبدالعزيز شرف ، دار الجيل - بيروت ، ط١ - ١٤١١هـ-١٩٩١م.
٢٣- اللغة عند الطفل : تطورها ومشكلاتها . د/ ليلى أحمد كرم الدين . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، لا . ت .
٢٤- اللغة عند الطفل من الميلاد إلى السادسة . صالح الشماع . دار المعارف بمصر ، ١٩٥٥م .
٢٥- اللغة والابداع : مبادئ علم الأسلوب العربى . د/ شكرى محمد عياد. مطابع انترناشونال . مصر ، ط ١ ، ١٩٨٨م.
٢٦- لغتنا والحياة . د/ عائشة عبدالرحمن «بنت الشاطئ» . القاهرة ، دار المعارف ، ط ٢ ، لا . ت .
٢٧- اللغة والطفل : دراسة فى ضوء علم اللغة النفسي . د/ حلمى خليل . بيروت ، دار النهظة العربية ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .
٢٨- اللغة والمجتمع . د/ على عبدالواحد وافى . القاهرة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر . لا . ت .
٢٩ - محاضرات عن مستقبل اللغة العربية المشتركة . د/ ابراهيم أنيس ، ١٩٦٠م .

٣٠- مشكلات اللغة العربية . محمود تيمور . مكتبة الآداب ومطبعتها (القاهرة) ، ١٩٥٦م .

٣١- مقدمة ابن خلدون . عبدالرحمن بن خلدون . دار إحياء التراث العربى ، بيروت . لا . ت .

٣٢- المعجم الوسيط . مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، دار المعارف بمصر ، لا . ت .

٣٣- من قضايا اللغة العربية المعاصرة. (مجموعة بحوث ودراسات) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ١٩٩٠م .

٣٤- منهاج البلغاء وسراج الأدباء. أبو الحسن حازم القرطاجني . تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجه. تونس - ١٩٦٦م.

٣٥- نظرات فى اللغة والنحو . طه الراوى . المكتبة الأهلية - بيروت ، ط ١ ، ١٩٦٢م .

٣٦- النظرية الأدبية المعاصرة، رامان سلدن، ترجمة : جابر عصفور، ط١ ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة .

الدوريـــــــات

١- اللسان العربى . المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم / مكتب تنسيق التعريب. ع : ٢٦ - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م و ع : ٣٥ - ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٢- الفيصل . عدد : ٢٠٩ ، ذو القعدة ١٤١٤هـ- أبريل(مايو) ١٩٩٤م.

٣- جريدة الشرق الأوسط . ع : ٥٥٨١ ، الخميس ١٠-٣-١٩٩٤م .

الملحق

المقالتان المترجمتان

مقدمة المترجم

في العدد الخامس لمجلة الشرق الأوسط The Middle East Journal (تصدر في واشنطن) عام ١٩٥١م نشر شوبي مقالة موسومة ب : «أثر اللغة العربية على نفسية العرب» وينطلق فيها من مسلَّمة التلازم بين اللغة ونفسية أهلها المتحدثين بها، أي الأثر الذي تتركه إحدى هاتين (اللغة والنفسية) على الأخرى. وقد اختار لدراسته من هذين الجانبين تأثير اللغة العربية على نفسية العرب كما يتضح من عنوان المقالة. والمقالة لافتة ، بل مثيرة للجدل حقًا كما قال فيرجسون في بحثه الملحق بهذا الكتاب . وفيها من الأحكام والآراء ما ينبغي أن نقف منه موقف المتفهم المتأمل لا المنزعج رغم قدمها الذي ربما يُسقط بعض ما جاء فيها ويُعفِّيه. وقد عثرت على المقالة (هي ومقالة «الازدواج اللغوي» لفيرجسون) بعد فراغي من بحث «الازدواج اللغوي بين العربية الفصيحة والعامية» في إطار ندوة ظاهرة الضعف اللغوي التي عقدت في رحاب جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الفترة من ٢٣-١٤١٦/٥/٢٥هـ. وقد ترجمتُ المقالتين للاستفادة منهما

ونشرهما ضمن البحث المشار إليه وللفت أنظار المهتمين إليهما وبخاصة بعد مضي زمن ليس بالقليل على نشرهما. وهذه قراءة للمقالتين تُقدمهما أكثر من أن تحللهما. ومع الأخذ في الحسبان زمن كتابة المقالتين إلا أن حديث الكاتبين عن العاميات يعطي انطباعاً ببعدها التام عن الفصيحة العربية إلى درجة صعوبة الالتقاء بها. والواقع غير هذا فكثير العامية فصيح ، وما يحتاجه هو تصحيح نطقه في الغالب ودلالته أحياناً .

تحتوي مقالة شوبي على أحكام وآراء بعضها صحيح وبعضها غير صحيح، وبعضها غير دقيق، وبعضها مفيد لا لأنه سليم ولكن لأنه ينبهنا إلى أشياء مفيدة أو من المفيد بحثها ودراستها. فمن الأحكام غير الصحيحة - مثلاً - قوله : بأن «القرآن بصفة خاصة يُعَد المرجع النهائي لا في المسائل النحوية والاصطلاحية فقط وإنما في ما يتعلق بالأسلوب الأدبي أيضًا». نَعَم ، القرآن الكريم مصدر للنحو والأسلوب الأدبي ولكنه ليس الوحيد أو النهائي لهذين، وإنما هو أحد مصادر منها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلام العرب شعره ونثره. وليس صحيحًا - أيضًا - أن من يكتب دون الأخذ في الحسبان المتطلبات النحوية والاصطلاحية

والأسلوبية كما هي ممثلة في القرآن - معرَّضٌ للاتهام بوقاحة استعماله لقداسة كلام الله المنزل، فأخطاؤه لغوية أسلوبية ولا تتجاوز غير هذا. وليس صحيحًا - كذلك - أن تعقيدات اللغة العربية الفصحى لا حصر لها، إذ يمكن حصر هذه التعقيدات ويمكن التغلب عليها أو ما هو ضروري منها. وليس صحيحاً -أيضاً- أن خطأ العربي في تهجية كلمة ما أو مخالفته إحدى قواعد النحو العربي - يُعد خيانة ؛ إذ الأمر يدخل في إطار الخطأ لا الخيانة ، وإذا كان ممن تُفترض معرفتهم للشكل الصحيح كانت درجة الخطأ أكثر ، وحَملتْ شيئاً من المؤاخذة والاستغراب فقط لا الخيانة . والحكم المطلق بأن العربية الفصحى لا تصلح للتعبير عن الجوانب المادية المحسوسة للحياة المعاصرة، وبأن أعظم الباحثين ليس بوسعه أن يطلق أسماء عربية فصيحة على المبتكرات والأجهزة - غير دقيق، وإلا ماذا نقول عن أسماء مثل : قطار، وسيارة، وهاتف، وتلفاز، وثلاجة، وغسالة، وغيرها؟! وماذا عن المجامع اللغوية ولجانها المخصصة لهذا الغرض، وما أصدرته من معاجم في هذا المجال؟! إن ما يحصل من قصور هو في عدم مواكبة هذه المخترعات بالإسراع في اختيار أسماء لها قبل انتشارها بأسمائها

الأجنبية ، ثم عدم الإلحاح على الاسم العربي المختار بنشره في الإعلام والمدارس والمنازل والمتاجر، أما العربية فليست عاجزة بما فيها من وسائل الاشتقاق والنحت والتعريب عن استيعاب الجديد.

قبل أن يتناول شوبي الموضوع الرئيس لمقالته - يمهد بالحديث عن وضع العربية الازدواجي، وفي رأيه أن الفجوة بين الفصحى وأية واحدة من العاميات في العالم العربي كبيرة جداً إلى درجة أن بعضهم لا يفهم عامية الآخر. ورأيه صحيح وبخاصة في الوقت الذي نشر فيه مقالته. وبعد وصفه المختصر لحالات الوضع الازدواجي في العربية يتساءل عن أسباب تحمل العرب لهذا الوضع، وربما يقصد أسباب استمرار العربية الفصحى - بوصفها الطرف الثاني مع العامية للازدواجية - بدليل طبيعة الأسباب التي ذكرها وهي : تقليدية اللغة المكتوبة بوجه عام، والعامل الديني، والارتباط الوثيق بين اللغة العربية وماضي العرب المجيد، وتأثير القومية العربية الحديثة، وتقييم العرب العالي لتراثهم الأدبي، فهذه الأسباب تسوغ التعلق بالعربية الفصيحة لا العامية.

ثم يبدأ في التحدث عن التأثيرات النفسية، ويبدو - في أول الأمر - أنه يقصد تأثير الوضع الازدواجي، المتمثل في وجود

لغتين عربيتين : فصحى وعامية بينهما فجوة كبيرة - على نفسية العربي. وبدا هذا لأن تناوله لهذه التأثيرات جاء في سياق (وبعد) ذكره للوضع الازدواجي بين الفصيحة والعامية، ولأنه ذكر أن تركيزه سيكون على تأثير اللغة العربية على نفسية العربي «المتعلم» وأنه سيمر مروراً عابراً على تأثيرها على الأمي. والمتعلم يعرف الفصيحة والعامية معًا ولهذا فهو يعيش الوضع الازدواجي، أما الأمي فلا يعرف إلا العامية فهو خارج هذا الوضع، فكأن الكاتب (أو هكذا يبدو) يستبعد هذه التأثيرات للغة العربية الفصيحة وحدها (بدون عامية) لكننا عندما ننظر في طريقة تناوله لمظاهر التأثير النفسي التي ربطها بسمات في العربية الفصحى حسب رأيه (وهي الغموض العام للفكرة، والتركيز كثيراً على المغزى النفسي للرموز اللغوية، أي على أصواتها، على حساب معانيها، والاستجابات العاطفية بسبب موسيقية اللغة، والإفراط في التأكيد والمبالغة، ومستويان للحياة) نحتار بين أن يكون قَصَد تأثير الازدواج اللغوي أو تأثير العربية الفصحى نفسها. والأرجح أن الاثنين تداخلا في تناوله.

وفي تناوله لمظاهر هذه التأثيرات من خلال خصائص في اللغة العربية الفصحى يبدأ بخاصة غموض الفكرة العام. وما يستدل به على هذا الغموض أشياء يصعب قبولها؛ فعدم فهم الغربي لما يُعبِّر عنه من أفكار في اللغة العربية ليس مقياسًا لأنها ليست لغته الأصلية. وصعوبة فهم اللغة العربية فهمًا دقيقًا إذا كان المحتوى جديداً أو تجريديًا شئ طبيعي ليس في العربية وحدها وإنما في كل اللغات. كما نتساءل، كيف نفهم الجملة العربية العادية معزولة عن سياقها، ثم لا نفهمها عندما تكون داخل السياق؟! وكيف لا ندرك هذا الغموض إلا بعد تمكننا من لغة غربية ما؟! كيف تُدوول -إذن- هذا الكلام المعرفي الهائل في اللغة العربية؟! ثم يأتي إلى ذكر الظروف التي أسهمت في هذا الغموض. ومع صحة بعضها في ذاتها، إلا أنها لم تسبب غموضًا وإنما نمطًا من الصعوبة خاصًا باللغة العربية مثلما لبعض اللغات أنماط صعوبة خاصة بها. ونحن مع الكاتب في أن للنحو العربي صعوبته لكنها نمط خاص باللغة العربية مثلما لكل لغة صعوبة نحوها النمطية. ثم إن صعوبة النحو العربي ليست صارمة إلى درجة أنه مجموعة معقدة مكونة من قواعد صعبة وقوانين تقيِّد تمامًا حرية المفكر العربي، إذ لو كان في

صعوبة النحو العربي ما يقيد حرية المفكر العربي لما كان للعرب تراثهم ولما أسهموا في نقل التراث العالمي والإضافة إليه، ولتوقفوا عن الفكر والأدب وإنتاجهما. وما يقيد حرية المفكر عربياً كان أو غير عربي هو الأوضاع والظروف الاجتماعية والسياسية لا قواعد اللغة العربية وقوانينها. ويرى الكاتب أن هذه الصرامة في النحو وهذا الغموض في اللغة أديا - معًا - إلى فقر نسبي في الانتباه إلى جوانب الربط بين الجمل. وفي هذا السياق يستشهد ببيت الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكًا   أبو أمـه حي أبوه يقاربـــه

لكن البيت شاهد - كما هو معروف في كتب النقد والأدب - على سوء التركيب، وقد عيب لغموض معناه ولما فيه من تعقيد بسبب سوء التركيب هذا لا بسبب صرامة النحو العربي أو غموض في طبيعة اللغة العربية ، فهو -إذن- إحدى الحالات الخارجة عن المسار الطبيعي الواضح للأسلوب الأدبي العربي.

وفي إطار ما يراه من تأثيرات للغة العربية يذهب إلى أن حياة العربي المتعلم تتأثر بالقيود التي يضعها غموض لغته الفكري على قرائيته وكتابيته، وإنْ تخلص العربي من هذه القيود في مجالٍ

ما بسبب تدريب أو نحوه فلن يتخلص منها في كل مجالات الحياة. ومن الحق أن نتساءل هنا : لماذا لم تؤثر هذه القيود على قرائية أو كتابية مئات بل آلاف العلماء والأدباء والمفكرين على امتداد التاريخ العربي؟! ولماذا لم تعرقل إبداعهم؟! فلعل هذا الغموض وَهْم بسبب ما يبالغ فيه بعضهم من تعميم صعوبة النحو العربي، وبسبب بعض الأساليب الركيكة المعقدة السيئة التركيب لبعض العرب معاصرين وقدماء، فهي جريرة أهل اللغة حُملتها اللغة. كما يذهب إلى أن الافتقار العام إلى التنظيم الذي يحكم الحياة في العالم العربي المعاصر إحدى نتائج هذه القيود. ويقرر أنه بالتجربة وحدها يمكن تحديد المدى والطبيعة الدقيقة لتأثير الغموض الفكري والصرامة الشكلية في اللغة العربية على فهم العرب وإدراكهم وتفكيرهم. ومع أن الكاتب لم يضع أيدينا على شئ مقنع ملموس على هذا التأثير على الفهم والإدراك والتفكير، إلا أننا ندعو المختصين في اللغة والتربية وعلم النفس إلى التأكد من هذا بالرصد والملاحظة والقياس والاختبارات النوعية فربما نخرج بنتائج مضيئة بصرف النظر عن إيجابياتها أو سلبياتها.

بعد هذا ينتقل إلى المظهر الثاني للتأثير النفسي من خلال خاصة الإفراط في التركيز على الرموز اللغوية (حسب رأيه) أي الاهتمام بالكلمات أصواتًا بدلاً من الاهتمام بها معاني ورموز أفكار. ويَعد (الكاتب) الاحتفاء أو التلاعب - كما يقول أيضًا - بالكلمات على هذا النحو عاملاً مساعداً على تعزيز خاصة التقليدية أو المحافظة في اللغة العربية، وعلى مضاعفة الغموض في معناها. ومع تضاعف الغموض وتزايده يتزايد - كما يقول - الغموض العام في كل أوضاع الحياة، كما يؤدي هذا الغموض اللغوي إلى تناقص في التفكير والخيال خلال استبدال الكلمات عوضًا عن ما تمثله. ومع أنه ينفي أن يكون التوكيد على الأصوات ظاهرة فريدة في العربية إلا أنه يرى أن الأدب العربي المعاصر مايزال يحتفظ بهذا التوكيد من ثقافة أقل تقدمًا. ونحن مع شوبي في أن شيئًا من هذا يظهر في الأدب العربي شعره ونثره. وإن كان ظهوره في الشعر مُسوَّغًا بوصفه فنًا يستمد بعض إيقاعه من الأصوات، ويستعين بها على الإيحاء - فإنه في النثر غير مقبول بسبب اختلاف طبيعة النثر ووظيفته عن طبيعة الشعر ووظيفته. ووجوده في النثر ، في صورة سجع أو عبارات خطابية رنانة، لا

يعني وجوده سمة ملازمة للغة العربية وإنما للمتحدث أو الكاتب بها، والدليل وجود أساليب عربية تخلو من هذا الاحتفاء بالكلمات أصواتًا.

وعن مظهر التأثير المتمثل في الاستجابات العاطفية يرى أن البنية الخصوصية للعربية وما فيها من قواعد تصريف وتوافق ومواقع نبر - يجعل موسيقية اللغة (بالمعنى النفسي للمصطلح) جزءاً ملازمًا لها ، وأن قوة تأثير هذه الأشياء سمح بتردد مقولة : إن الشخص في اللغات الأوربية يتعين عليه أن يقرأ حتى يمكن له أن يفهم، في حين أنه في اللغة العربية يتعين عليه أن يفهم كي يقرأ. ورغم غموض البُعد القصدي للمقولة إلا أن ما نستطيع قوله هو تعلق الفهم بالقراءة، وتعلق القراءة والقدرة على توظيفها بفهم قواعد اللغة التي نقرأ بها. والسمة الموسيقية في العربية - حسب رأيه - خلقت عند العربي حالة عاطفية تتكشف دلائلها حتى وهو يتكلم لغة أجنبية. وحسب رأيه، تبلور من هذه الموسيقية المتركبة بصرامة في اللغة العربية بجانبيها الفصيح والعامي، ظاهرتان : الأولى - حمل هذه الموسيقى مكوناتٍ وظيفية للعاطفية في صورة تأثيرات وَفق المعنى أو الوضع أو كليهما. وحسب رأيه أيضًا، أن

ما ينشأ عن هذا من حالة نفسية تأثرية غير مُسوَّغة - يقلل القدرة على التفكير بوضوح، كما أن هذه الحالة النفسية التأثرية إلى جانب التركيز على الكلمات العربية بوصفها أصواتًا - مسئولة عن حجج ضعيفة يبديها - أحيانًا - متحدثون متعلمون أذكياء. والظاهرة الثانية هي أنَّ (طالما أن هذه العاطفية مُعْدِيَة) تفاعل تأثرات المتناظرين يقود إلى عاطفية متزايدة تقلل من التفكير والقدرة على إعمال العقل، وتسهم في الجدل والنزاع حتى ليُعد - أحيانًا - النزاع في المناقشات والمناظرات العربية معياراً مقبولاً ممتعا. ولن ندفع هذه الأشياء التي ذكرها فربما تكون (أو بعضها) صحيحة بدرجة ما على الأقل، لكننا نتساءل عمّا إذا كانت هذه في العرب وحدهم ، وهل هي فيهم بسبب لغتهم أم بسبب طبيعتهم؟!

ثم نصل إلى سمة أخرى من سمات اللغة العربية الفصحى في رأيه وهي التأكيد الزائد، والمبالغة. وبعد أن يعدد صوراً لهما يذكر مظهرين لتأثيرهما : الأول - اضطرار العرب إلى الإفراط في التوكيد والمبالغة في كل شكل من أشكال التواصل، فكأن هذا صدى للتوكيد الزائد والمبالغة في العربية الفصحى. والثاني - فشل العرب في إدراك أن الآخرين يعنون ما يقولون تمامًا إذا ما

عبروا عنه بطريقة بسيطة أي دون مبالغة أو توكيد. ونحن لا ننكر أن في اللغة العربية أكثر من صورة للتأكيد، وأن المبالغة تتخلل بعض أساليبها الشعرية والنثرية مثلها مثل اللغات الأخرى، لكن للتأكيد مجالاته ودواعيه، وللمبالغة حدودها وقوانينها ودواعيها كذلك. ووجود المبالغة في العربية لا يعني أنها خاصة فيها بوصفها لغة عربية. ومن الأدلة أن المبالغة - كما أوضحتُ في مناسبة غير هذه - كانت خاصة واضحة في الشعر العباسي. ولو كانت خاصة باللغة العربية نفسها لوُجدت -بشكل ملحوظ- في الشعر الأموي والإسلامي والجاهلي قبله ، وهذا يعني أن المبالغة تخضع لظروف أدبية ونقدية واجتماعية لا لظروف لغوية . ثم إن وجود المبالغة والإفراط في التوكيد في العربية ، من ناحية أخرى ، لا يعني كونهما خاصتين من خصائصها إذ ربما تكون من طباع العرب تأثرت بهما اللغة فالناس يخلقون اللغة ويؤثّرون فيها قبل أن تؤثر فيهم وتسهم في تشكيل شيء من طباعهم . أما مظهرا التأثير اللذان ذكرهما لهاتين الخاصتين فيظهر أن ارتباطهما بالتربية والثقافة والعادات أولى من أن يكون باللغة.

ثم يصل إلى الذات المثالية والذات الواقعية للإنسان فيقول إن العربية الفصيحة هي الوسيط المتميز لذات العرب المثالية وبخاصة المتعلمين. والفجوة بين الذاتين عند العرب تقوى بهذه الفجوة بين العربية الفصيحة التي لها منزلة في الذات المثالية، والعربية العامية التي تحتكر الوظائف العملية للحياة. وعندما يفكر العربي في ذاته المثالية يفكر بالفصيحة ولكنه في حياته اليومية يتحرر من التمييز بين ذاته المثالية وما يفكر فيه حقًا ويعمله، والفضل يعود إلى استعماله اللغة العامية. ويرى أن النتيجة لهذا هي أن العربي في بعض الظروف يعبر عن نفسه بنغمة أخلاقية غاية في التشامخ، وفي بعض الظروف يكون بوسعه أن ينزل إلى مستوى أقل، ولن يشعر إلا بقليل من التناقض بين هذين الطبعين. وفي رأيه أن مثل هذه التناقضات موجودة في الحضارة الغربية لكنها في العالم العربي أوضح وأكثر تكراراً. وفي رأيه -أيضاً- أن الفصل بين العربية الفصحى (الذات المثالية) من ناحية، والعربية العامية (الذات الواقعية) من الناحية الأخرى، بالإضافة إلى المغالات والتوكيد الزائد والمبالغة - يُعد سببًا رئيسًا لبروز هذا التناقض في الشخصية العربية ، أي أن الازدواج اللغوي بين

العامية والعربية الفصحى بما فيها من مغالات وتوكيد زائد ومبالغة - سبَّبَ عدم اتزان في شخصية العربي.(انتهى محتوى كلامه) وسنصرف النظر عن جانب المغالاة والتوكيد والمبالغة وما له من تأثير فقد سبق التعليق عليه. أما عن جانب الازدواج اللغوي فقد أثبتنا - في سياق البحث - ما له من آثار سلبية ، ومن بينها ما يحدثه من بلبلة واضطراب في الذهن نتيجة الحيرة، في المواقف التعبيرية، بين فصيحة متعلمة غير ممارسة وعامية مكتسبة بالتنشئة والممارسة. ولا ندري إن كان هذا الاضطراب الذهني تَطَوَّر، بالتراكم والمعاناة، إلى تناقض في الشخصية. فلأهمية المسألة وخطورتها ندعو المختصين من مربين وعلماء نفس وغيرهم إلى الإسهام بالرأي فيها، بل في كل ما طرحه شوبي من آراء وتوصل إليه من نتائج. وبصرف النظر عن مدى صواب ما توصل إليه أو خطئه، فلا ينبغي أن يكون مزعجًا -كما قلت- بقدر ما يكون باعثًا للتأمل والتفكير فيما طرحه، ودافعًا إلى الرصد الدقيق المخلص الواعي للوضع اللغوي العربي الازدواجي واتجاهه أو تطوره.

أما بحث فيرجسون عن الازدواج اللغوي (نشر في World, vol. 15, 195 ثم في Language and social context by

pier paolo giglioli 1972) فيبدو أكثر موضوعية وعلمية. ويهدف إلى تشخيص الازدواج اللغوي من خلال ما اختاره من مجتمعات لغوية ولغاتها. ومن خلال هذا التشخيص يبين الملامح المميزة للازدواج اللغوي، ويجيب على تساؤلات منها تساؤله عن الظروف التي ينشأ فيها الازدواج. ويبدو أن الظروف التي ذكرها لنشأة الازدواج تلتقي، في بعض جوانبها على الأقل، مع الظروف والأسباب التي ذكرها ابن خلدون في مقدمته وأوردتُها في بحثي عن الازدواج. ولا يذكر فيرجسون زمنًا محدداً أو تقريبيًا لظهور الازدواج في اللغة العربية، إذ يقول إنه يعود إلى حدود معرفتنا بها، وهذه عبارة مبهمة. أما ابن خلدون فقد حدد الظروف الزمنية لهذا الظهور.

وفي إطار تشخيصه للازدواج اللغوي يذكر أن من أهم خصائصه أنه يخصص وظيفة لكل من الفصحى والعامية، ثم يذكر بعض المواقف للفصحى والعامية. ويذكر أن استخدام الفصحى في موقف يتطلب العامية عرضة للاستخفاف، مثلما أن استخدام العامية في موقف يتطلب الفصحى عرضة للاستخفاف أيضًا. ويبدو أن شيئاً من هذا مايزال صحيحًا فيما يتعلق بالعربية. والحل هو أن

نزيل الحدود اللغوية الصارمة بين هذه المواقف بالاستمرار في استعمال الفصيحة لمواقفها التي تتطلبها، واستعمال الفصيحة الميسرة للمواقف التي اعتدنا استعمال العامية فيها، وأن نصحح الاستخدام اللغوي لبعض المواقف، فلا يصح - مثلاً - أن نشرح بالعامية، للطلاب أو غيرهم، ما هو مدون بالفصيحة فهذه إدانة (غير مقصودة) للفصيحة، وربما استُثمرت لتأكيد الغموض الذي ذكره شوبي للغة العربية في مقالته السابقة.

ومما يذكره - أيضًا - في إطار تشخيصه (ويهمنا منه ما يتعلق باللغة العربية) أن العامية تحقق للمتكلم بها مستوى من الارتياح ربما لا يتحقق له مطلقًا عند استعمال الفصحى. ولا ننفي هذا لكنه ليس على إطلاقه سواء بالنسبة للمتحدث أو الموقف ؛ إذ هناك مواقف خاصة لا يتحقق فيها الارتياح للمتحدث إلا باستعمال الفصيحة لأن العامية لا تنجده في مثل هذه المواقف. ثم إن العامية إذا حققت ارتياحًا لمتكلم ما في موقف ما، فليس لكونها عامية وإنما لهذه الحدود اللغوية بين المواقف، ثم لتمكن المتحدث منها بسبب اكتسابه لها ممارسة منذ الصغر مقارنة بالفصيحة التي لم يتعلمها أو تعلمها ولكن لم تنل حظًا من الممارسة. وما لم يَحْدُث

تغيير جوهري في هذا النمط من الاكتساب - كما يرى فيرجسون ونتفق معه فيه - بأن يمارس العربي الفصيحة الميسرة - حسب ماأوضحت في البحث- منذ صغره، ويبقى محافظًا على هذه الممارسة في كل المواقف - فلن يحدث تغير في اتجاه الاستفادة الكاملة من العربية الفصيحة وتوظيفها. نقول هذا لأن أسرار الأشياء (ومنها اللغات) وكوامنها وطاقاتها لا تظهر إلا بمعايشتها زمنًا كافيًا. وبدون هذا النوع من الممارسة سيبقى الوضع اللغوي غير مستقر.

ومما يذكره فيرجسون أن استعمال العربية الفصحى في المحادثة العادية يُعد تحذلقًا وتصنعًا. ومع واقعية هذا إلى حد ما إلا أن طريقة النطق بالكلمات وإخراج الحروف هي أكثر ما يسبب وصف المتحدث بالتحذلق والتصنع، كما أعتقد أن استعمال الفصيحة الميسرة لن يوحي بشئ من هذا التحذلق أوالتصنع.

ثم يخاطر - كما يقول - بتكهن عن مستقبل وضع اللغات التي أجرى دراسته عليها ومنها العربية التي يرى أن الازدواج اللغوي فيها يتطور ببطء في اتجاه لغات معيارية يختلط فيها العامي بالفصيح، ويرجح في هذا الإطار ثلاثًا هي : مغربية (قائمة

على لهجة الرباط وتونس) ومصرية (قائمة على لهجة القاهرة) وشرقية (قائمة على لهجة بغداد) ويضيف، حسب التطورات السياسية والاقتصادية، سورية (قائمة على لهجة دمشق) وسودانية (قائمة على لهجة أم درمان - الخرطوم) أو لهجات أخرى غير هذه. وإذا ما جارينا فيرجسون في هذا التكهن فسنتوقع سادسة هي خليجية تتبلور من لهجات دول الخليج العربي، وربما تكون لهجة المنطقة الوسطى بالمملكة العربية السعودية قاسمَها المشترك. لكننا نأمل أن تخيب هذه التكهنات بوعي عربي لغوي يعالج إشكالية الازدواج اللغوي بممارسة فصيحة ميسرة في ظروف الحياة العادية، وبرعاية الفصيحة وممارستها في المجالات والمواقف التي تتطلبها، وإلا ظل الوضع اللغوي قلقًا، وربما سمح لتغلب المد المعياري العامي على الفصيح.

وأخيراً أقدم الشكر والتقدير للزميل الدكتور/ صبري محمد حسن على ماقدمه من مساعدة ومراجعة لترجمة المقالتين .

عبدالرحمن القعود

المقالة الأولى

تأثير اللغة العربية على نفسية العرب

ي شوبي *E. Shouby*

نشرت هذه المقالة في مجلة الشرق الأوسط (The Middle East Journal) المجلد الخامس رقم ٢ (ربيع ١٩٥١م) ص ٢٨٤ ـ ٣٠٢
وحق نشرها محفوظ لمعهد الشرق الأوسط .
1761 N street, N W, Washington, DC, USA.

تأثير اللغة العربية على نفسية العرب

ي. شوبي[1] *E. Shouby*

من المؤكد أن تتأثر لغة شعبٍ ما بنفسيته وثقافته ، مع أن قليلاً من الباحثين يدرسون -بجدية- عكس هذا : أي الأثر الذي تتركه اللغة نفسها في نفسية أهلها المتحدثين بها وفي ثقافتهم[2]. والاتجاه العام هو عدُّ اللغة مرنةً بما يكفي لتكييف نفسها مع الثقافات والأفكار أكثر من عدِّهَا صلبة تَطبع خصوصياتها على الثقافات والأفكار . لكنّ إلقاء نظرة دقيقة على العلاقات بين اللغة والنفسية سترينا تلازما أو تواقفا حميماً بين هذين الإثنين . وينبغي التحقق من مدى هذا التأثير ذي الاتجاهين المختلفين ومن طابعه الدقيق كل حالة على حدة ، نظراً لأن هذا المدى وهذا الطابع يعتمدان على كثير من العوامل والمتغيرات التي يمكن ، في أحسن الأحوال ، تقييمها بشكل عام وحسب . ويحاول البحث التالي تلخيص الملامح البارزة لواحد فقط من هذين التأثيرين : وتحديدا الأثر الذي تتركه اللغة العربية على نفسية العرب .

العربية الفصحى والعربية العامية :

لا تموت الأشكال والمضامين اللغوية في معظم اللغات المكتوبة إلا بعد نضال مرير ، ولا تُستثنى اللغة العربية من هذا لأن ملامحها الرئيسة وخصائصها ، كما هي في القرآن وشعر المعلقات وقصائد أخرى يعدها كثير من الباحثين منتمية إلى الفترة نفسها ، ماتزال حتى بعد مُضي حوالي أربعة عشر قرناً تحتل مكانة النماذج التي يجب أن تحاكَى محاكاة أمينة . والقرآن بصفة خاصة يُعد المرجع النهائي لا في المسائل النحوية والاصطلاحية فقط وإنما في ما يتعلق بالأسلوب الأدبي أيضاً، ورغم الصيحات العديدة التي تطالب بالإصلاح في كل من اللغة وأسلوب الأدب العربي كليهما ما يزال من المستحيل على أي عربي، يكتب دون أن يأخذ في حسبانه المتطلبات النحوية والاصطلاحية والأسلوبية كما هي ممثّلة في القرآن، ألاّ يُعرِّض نفسَه للاتهام بالجهل أو الغباء، إن لم يتُهم باستعماله الوقح لسلامة اللغة العربية وكمالها فضلاً عن اتهامه بوقاحة استعماله لقداسة كلام الله المنزل .

ولكن إذا كان من الواجب على العربي أن يكتب بالعربية الفصحى فليس من المتوقع منه أن يستخدم هذه اللغة نفسها في

محادثاته اليومية ؛ ففي هذا المجال ينبغي أن يستخدم العربية الدارجة التي تختلف من بلد إلى آخر بل من مدينة إلى أخرى . وإن حاول كاتب ما أن يكتب متعمداً استعمال الدارجة (التي تستعمل عادة في أغراض « الإطراف » أو لإيراد الكلمة العامية على سبيل المثال) فسيواجه صعوبة التهجية . وفي كل الاحتمالات لن يفهمه تماماً خارج المنطقة التي كتب بلهجتها المحلية سوى قليل جداً من الناس . وإن حاول، من ناحية أخرى ، أن يتحدث باللغة الفصحى التي يكتب بها فسيجد نفسه غير مفهوم لدى الأميين ويستخف به الجميع مثلما يحالف سوء الحظ كثيراً من المتأنقين الذين يحاولون جعل اللغة الفصحى (لغة الكتب) لغةَ الحياة اليومية . بل إن المتعلمين العرب أنفسهم يسخرون من أي شخص يستخدم هذه اللغة الفصحى في الأغراض العملية للحياة اليومية ، ولكنهم يطالبون أي متحدث [في غير هذه الأغراض] بأن يستخدمها بدلا من الدارجة . وقد سادت في اللغة الصينية أيضاً وإلى عهد قريب، ظروف مشابهة تماماً (٣).

والفجوة التي بين الفصحى وأية واحدة من العاميات كبيرة جداً إلى درجة أن المتعلمين المصريين الذين يعرفون الفصحى مثلما

يعرفون العامية المصرية يجدون صعوبة في فهم العامية العراقية على الوجه الصحيح ، وهكذا يمكن أن يخفق المعلمون السوريون في فهم العربية المحكية في المغرب أو تونس . هذا الوضع مُذكِّر قوي بالعصور الأوربية الوسطى عندما كان المتعلمون الأوربيون يكتبون اللاتينية ويقرأونها ولكنهم كانوا يتحدثون اللهجات المختلفة التي تطورت فيما بعد إلى ما يعرف الآن باللغات الأوربية المتنوعة . ومع ذلك كان بوسع باحث القرون الوسطى أن يتحدث اللاتينية الفصحى دون أن يعرض نفسه للاستخفاف كلما يقابل باحثين من بلدان أخرى ، في حين يواجه العربي المتعلم المعاصر صعوبة في التغلب على كل التعقيدات التي لا حصر لها في العربية الفصحى . وحتى بعد دراسته لها طول حياته ينبغي ، في المعتاد ، أن يكون يقظاً جداً عندما يريد أن يستعملها استعمالا سليما .

وفي مقدمة كل تلك الملامح المتباينة للصيغتين الفصحى والعامية يأتي التقسيم شبه الكامل بينهما للعمل . العربية الفصحى لا تصلح للتعبير عن الجوانب المحسوسة والجوانب المادية للحياة المعاصرة ، وليس بوسع أعظم الباحثين أن يطلق أسماء

عربية فصحى على المبتكرات والأجهزة التي نجدها في المنزل الحديث ، ناهيك عن آلاف الأشياء التي نشاهدها في المكتب وفي المصنع وتحت كَبُوت السيارة وفي المعمل أو في أي إبداع من إبداعات الحضارة الحديثة . وربما يستطيع العربي أن يوصل فكرته بالعامية عن طريق استعارة كلمات من لغات أجنبية أو نحت كلمات جديدة من ناحية ، وباللجوء إلى الدوران حول المعنى من ناحية أخرى ، ولكنه لا يستطيع استعمال هذه الكلمات المستعارة أو المنحوتة حديثاً في كتاباته دون الاحتماء بالرموز الاعتذارية مثل الأقواس وعلامة التعجب أو علامة الاستفهام . ولن يقبل غالبية القراء العرب طباعة أية كلمة جديدة إلا إذا كانت معرَّبة ، بل إنه لن تُعرَّب أية كلمة إلا إذا كانت مستعملة في كتابات الثقات البارزين . ولسوء الحظ اتسمت جهود الجمعيات اللغوية ، على اختلاف أنواعها ، في التعريب أو النحت بطابع جعلها تسلم نفسها للنقد والسخرية معاً . وقد حُلَّ هذا الإخفاق حلاً جزئياً على الأقل في الدوائر العلمية باستعمال الكلمات اللاتينية واليونانية نفسها التي تثقل كاهل اللغات الأوربية . ومع ذلك فإن الأدب العربي مازال في منآى عن المضامين الجديدة للثقافات والحضارات

غير العربية .

وتبقى العاميات على تعددها مناسبة للتعبير عن مظاهر الحياة اليومية العملية ، ففيها ما يكفي من الكلمات التي تعبر عن الأشياء المحسوسة التي يستعملها العربي العادي ، كما تحتوي على تعبيرات وكلمات زاخرة بالمعنى (مثل مثيلاتها في العامية الأمريكية) وهذه التعبيرات والكلمات أكثر تعبيراً عن طبيعة الإنسان من كلمات ، في العربية الفصحى ، مهجورةٍ متأنقةٍ وتعد غريبة عن جوهر الحياة في العالم العربي في الوقت الحاضر . ولكن - على العكس لذلك - ليس هناك عامية تستطيع أن تنهض أداةً مناسبة في المناقشة التجريدية . من هنا لا تصبح الفلسفة والأدب، اللذان يعدان أكثر العلوم تعقيداً بل حتى أي موضوع من الموضوعات التي تتطلب مفاهيم أعلى من هذه التي يمكن أن تتولد في حياة العربي اليومية البسيطة نسبياً - موضوعا في العادة لمناقشة تدور بالعامية . ويجرى في الغالب استعمالُ خليط من التعبيرات العامية والكلمات الفصيحة في المناقشات التي تدور بين المتعلمين وفي كتابات بعض الصحفيين ، ولكن في غياب الكلمات الفصيحة (أو الأجنبية) يصبح من المستحيل تقريباً نقل

المعاني والأفكار التي وراء الواقع والحس .

وهنا يجب أن نتناول قضية « عربية الصحافة » فالواقع هو: أن ما يسمى بالأسلوب العربي هو الأسلوب الأدبي التقليدي نفسه مضافاً إليه درجات متفاوتة من العاميات المناسبة . ويتوقف مدى شمولية هذه العربية الصحافية على مدى استخدامها للعربية الفصحى . وكلما اقتربت عربية هذه الصحافة من العامية قلت إمكانية فهمها أو قبولها خارج نطاقها المحلي وباختصار يجوز القول : إنه بالرغم من أن الصحف والمجلات والكتب الشعبية والمقررات العلمية البسيطة والمحاضرات العامة والأحاديث والإذاعات قد بدأت فعلاً في تقريب لغات البلدان العربية المتعددة بعضها إلى بعض ، إلا أن إيجاد عربية صحافية عامة ليس في المنظور القريب بعد . زد على هذا أن هناك أسباباً كثيرة تجعلنا نرى أن أسلوبا كهذا لا يتحقق إلا من خلال الارتقاء بالعامي في اتجاه الفصيح بدلاً من إنزال الفصيح إلى مستويات العاميات المتعددة .

محافظـــة العربية الفصحى :

من المناسب قبل الدخول في التأثيرات النفسية لوضع كهذا ، أن نسأل عن الأسباب التي تُمكّن أي شعب يقظ مرن بوجه عام مثل العرب من تحمل الحالات التي وصفناها قبل باختصار . والسبب الأول يمكن العثور عليه في محافظة اللغة المكتوبة بوجه عام . ويمكن رد هذه الخصيصة إلى جملة أسباب منها : قنونة المناشط البشرية [لعله يقصد حصر هذه المناشط وعدم تنوعها] ، وتطور العادات المتأصلة والقوة السحرية المعزُوّة شعوريا أو لا شعوريا أو كليهما إلى الكلمات وصورها ، والإقتناع والرضا اللذان يوفرهما تعلم لغة مستقرة وقواعدِها ، ومتعة الإيقاع والسجع الناشئين من كلمات معينة ومن أنماط من الكلمات ، وتَحُولُ العاطفة والحب من الوالدين والجهات التي دَرَّست اللغة إلى اللغة نفسها .

ويأتي العامل الديني بالتأكيد سبباً ثانياً . فالجميع يسلم بأن القرآن هو أرقى إنجاز لغوي للغة العربية في كل مجال ممكن ، ولا أحد يستطيع منافسته. ويتعين على الجميع أن يحاولوا محاكاته بتواضع وخشوع . ولا ينبغي أن يُكتب شيء لا يلتزم بالحالات

البلاغية والأدبية والإصطلاحية واللغوية السائدة في القرآن . ومن المعتقد أن القرآن مكتوب بلهجة مكة ، وهي لهجة قريش التي عاشت هناك وتميزت بكون النبي محمد واحداً منها . ويعتقد المسلمون في كل أنحاء الدنيا أنه بكون القرآن تجسيدا لكلمات الله فهو شيء مقدس ، ويجب أن يظل المرجع النهائي ليس في الدين الإسلامي فقط وإنما في اللغة العربية أيضاً .

والقرآن يثبت إلى حد بعيد أهليته للقيمة العالية التي يحظى بها من المسلمين . إنه مجموعة نصوص عظيمة من عبارات مُحْكمة تبحث في عدد كبير من الموضوعات بأسلوب متناغم موسيقي جميل جداً يعكس « عبقرية محمد » [هكذا في الأصل] وللقرآن جماله الخاص ، ذلك الجمال الذي يفتقده كل من يقرأ القرآن مترجَما. وجمال القرآن ، مثل مضمونه الرمزي ودلالته الدينية ، مسئول إلى حد ما عن سلطته المستمرة على اللغة العربية .

وثالث الأسباب هو الارتباط الوثيق بين اللغة العربية وماضي العرب المجيد . والعربي يعد العربية الفصحى لغة أسلافه الذين صنعت مآثرهم التاريخ في ظل الإسلام ، كما يَعُد استعمال لغة أولئك الأجداد البارزين العظماء فخراً عظيماً له . وهذه عاطفة

إنسانية طبيعية ، فتمجيد الماضي ظاهرة عامة ، لكن هذا التمجيد سوف لن يكون سبباً كافياً وحده للحفاظ على العديد من العناصر العتيقة في اللغة العربية . ومن الصعب أن نصدق أنه من المعقول في هذا العصر أن انجليزيا ، على سبيل المثال ، يحبذ الاستعمال الأنيق للإنجليزية المستعملة عند شكسبير وإصحاح الملك جيمس ويدافع عنه .

أما السبب الرابع فهو تأثير القومية العربية الحديثة . ويُعد الافتخار بلغة ما شيئاً عاماً ، لكن بعض الأمم تشعر بهذا أكثر من غيرها . وبينما يشعر معظم الأمريكيين بحرية عند تهجية انجليزيتهم وبحرية مع قواعدها دون أي شكل من أشكال الانتقاد - يكاد الأمر يدخل في إطار الخيانة إذا ما أخطأ عربي تهجية كلمة ما أو خالف واحدة من القواعد العديدة المتشابكة في نحو اللغة العربية وبخاصة إذا كان ممن تُفترض معرفتهم للشكل الصحيح . وعلى هذا ، فتقليدية اللغة العربية ليست مُدعَّمة دينيا فحسْب ولكن قومياً أيضاً ؛ فالعربية بوصفها شيئاً حيويا جزء من العروبية مثلما هي جزء من الإسلام .

وأخيراً يأتي السبب الخامس الذي يُعد إلى حد ما نتيجة

للأسباب السابقة ، وهو أن العرب يُقَيِّمون تراثهم الأدبي تقييماً عالياً . كما أن اللغة التي كتب بها هذا الأدب ينبغي أن تكون محترمة ومحط إعجاب ، فأي تغيير فيها ينطوي على خيانة لها ، كما سيحرم الأجيال القادمة من ميراثهم الثقافي . ومتحدثو الإنجليزية على نحو مشابه يرفضون التسليم بالإنجليزية الأساسية لأنهم يدركون أن أمثال شكسبير وميلتون وحتى بوب سوف لن يكون إنتاجهم ممتعاً جداً في هذه الإنجليزية الأساسية كما هو في لغته الأصلية . وفي الأدب العربي ستكون الخسارة أعظم إلى حد كبير نظراً لأن جماله يعتمد على جرس الأصوات وإيقاعها - حتى في النثر - وعلى التلاعب بالكلمات ، وهي وسيلة كثيراً ما يساء استعمالها .

ويمكن القول بأن أعظم إنجاز للثقافة العربية يتمثل في مجال الأدب ؛ فلو سمح بأي تهوين من قيمة هذا التراث الأدبي ، أو تشويهه عن طريق الترجمة إلى إحدى اللغات التي تحتاج إلى كثير من الدقة في التعبير وقليل من المعالجة البارعة في الأصوات- فسيكون هذا لطمة كبيرة مسددة إلى مكانة الثقافة العربية . ولهذا فالأدب العربى يتلقى دعماً آخر من هؤلاء المفكرين المتطلعين -

رغم أنهم ليسوا علماء لغة بالمعنى الدقيق - إلى أن يروا التراث الأدبي محفوظا مصونا من أي أذى .

التأثيرات النفسية :

ليست الأسباب الخمسة الرئيسة السابقة هي الأسباب الوحيدة، بطبيعة الحال، للتقليدية الصارمة للعربية المدونة . فالمعتقد أنها الأسباب الأكثر أهمية ، ولهذا فبالإمكان الآن أن نعود إلى التأثيرات النفسية للوضع اللغوي.

يعتمد جزء كبير من حياة الإنسان الفكرية على ما يسميه علماء النفس بالعمليات الرمزية . هذه العمليات تستعمل فئتين رئيستين من الصور الذهنية: الإدراكية واللغوية . والرموز الإدراكية ربما تكون بصرية أو سمعية أو شمية أو صوراً حركية ، ولكنها في العادة صور لأشياء مادية ملموسة . وقد تكون الإشارات اللغوية صوراً بصرية أو سمعية أو حتى حركية . والكلمات الممثلة والأفكار والأحاسيس والمؤثرات أثناء عملها والصور اللغوية لا تحتم أن تكون محسوسة أو مادية فربما تكون تجريدية أو افتراضية . ويعتمد تعامل الإنسان مع العالم الخارجي

على كلا النوعين من الصور ، ولكن معالجة صور الأشياء المحسوسة ، كما يمكن أن يكون واضحاً ، لها حدودها ولا يمكن استخدامها لبعض أنواع التفكير على نحو ملائم .

ويستعمل الأميون العرب ، الذين هم أكثر عدداً إلى حد بعيد من المتعلمين ، العامياتِ المتنوعة بلا استثناء . وتتمثل هذه العاميات في الصور والإشارات اللغوية المادية المحسوسة على وجه التقريب : مثل الكلمات التي تتعامل مع العناصر غير المحكمة للحياة اليومية البسيطة في العالم العربي .

لهذا فالعمليات الفكرية للعرب الأميين لا تفتقر فقط إلى المضامين الوافرة في الثقافة الغربية ، بل إلى الصيغ التي تتشكل فيها هذه المضامين ، وإلى الكلمات التي تتجسد فيها . ويتصل هؤلاء العرب بالعربية الفصحى خلال الاستماع إلى المذياع والمتحدثين والمواعظ في المسجد والقرآن المرتل لكن فهمهم لها يبقى غامضاً في معظم الحالات .

وللمتعلم العربي معرفة حسنة بالعربية الفصحى إلى جانب معرفته بالعامية . علاوة على هذا ، من المرجح أن يُوصِّل إحساسه وفكره الصريح من خلال رصيد من المفاهيم التجريدية توفره العربية

[illegible] إلى درجة أنه من غير الصحيح علمياً أن نتعامل معها تحت مسمى واحد - يبدو أنه ، من أجل هدف هذه الدراسة الموجزة ، سيكون من الأفضل أن نركز انتباهنا على تأثير اللغة العربية على نفسية العربي المتعلم ونمر مروراً عابراً فقط على تأثيراتها على الأميين . يضاف إلى هذا أنه نظراً إلى أن من المستحيل تناول كل مظاهر هذا التأثير النفسي للغة العربية فيمكن اختيار المظاهر التالية بوصفها أكثر أهمية وهي: الغموض العام للفكرة أو القصد ، والتركيز كثيراً على المغزى النفسي للرموز اللغوية على حساب معانيها ، والإستجابات العاطفية النمطية ، والإفراط في التأكيد والمبالغةُ ، ومستويان للحياة .

غموض الفكرة العام :

لن يعترض أي غربي حاول فهم اللغة العربية على أن الأفكار التي يُعبَّر عنها باستعمال هذه اللغة غامضة بوجه عام ويصعب الوقوف عليها . ومن الممكن فهم جملة عربية عادية فهماً كلياً ،

ولكن عندما يتعلق الأمر بفهمها بطريقة تناسب كل التفاصيل في داخل صورة واضحة جيدة التوحد والاندماج، فالأمر - عندئذ - مختلف . وبطبيعة الحال لاتشكل العربية التي تعالج قضايا بسيطة أو مألوفة أيةَ صعوبات ، لكنه كلما كان المحتوى جديداً أو تجريديا زادت صعوبة فهم العربية فهما دقيقاً . وبالإمكان نقل الكلمات وحتى الجمل ، لا بوصفها وحدات ولكن بوصفها بُنى ، من سياق إلى آخر مختلف تماماً دون تغيير جوهري في المعنى (أو حتى دون تغيير في المعنى على الاطلاق) . ويبدو المتعلمون العرب ، ما لم يكونوا متمكنين من لغة غربية ما ، غيرَ واعين تماماً لهذا الغموض وعدم الدقة . وإذا كانوا يفهمون المعنى العام أو دلالة الجملة أو المقطع ، وكل التلونات الوجدانية للغة ، وإيحاءاتها الفطرية فسيشعرون بطبيعة الحال أنهم يفهمونها فهماً كاملاً دقيقاً ، لكن سرعان ما تتبدى عدم دقة هذا الاستنتاج لهؤلاء الذين يحاولون ترجمة العربية إلى لغة أخرى .

ويعود هذا الغموض أساساً إلى حقيقة أن العربية الفصيحة الحديثة مكونة من وحدات وبنى صلبة مسهبة غير متمايزة . وبدون أن نمضي بعيداً جداً كأن نمضـي بشـكل كامل إلى نظريات مثل

التي في علم نفس النمو الذهني[٤] المقارن عند ڤيرنر H. Werner - نجد من المعقول أن نقول إن علم النفس الحديث (وبخاصة علم النفس التجريبي) قد أثبت أن المرحلة المبكرة لكل ما له علاقة بعمليات الإدراك الحسي وبالمفاهيم إنما تتميز بصلابة وإسهاب وتشابه من هذا القبيل. ولأسباب عديدة ، لم تتجاوز العربية بَعْدُ هذه المرحلة تجاوزاً كبيراً . ويستعمل أوتو جيسبيرسن Otto Jespersen في وصفه لسمات ما يسمى باللغات التركيبية المصطلحات نفسها تقريباً كما هي مستعملة عند علماء النفس [٥] .

ومع أخذ هذه الفكرة في الحسبان ، يمكن أن نعزو باختصار غموض الكلمات والجمل العربية العام إلى الظروف التالية :

١- أنها ربما لم تعرف تعريفاً محدداً عندما استعملت لأول مرة ، وبقيت دون تغير كبير .

٢- أنها استعملت تدريجياً لتدل على معانٍ دخلت مؤخراً في الثقافة العربية مما سبب كونها لا تمثل الآن الغامض الأصلي والمعنى العام فحسب وإنما الاستعمالات المتعددة التي التصقت بها لعدة قرون .

٣- أن تدفق الثقافة الغربية المفاجئ السريع إلى العالم العربي قد أجبر الكتاب والمفكرين بخاصة على أن يستعملوا كلماتٍ قديمة لمعانٍ جديدة . وقد تستعمل كلمة بعينها للدلالة على شيء ما عند كاتب ما وعلى شيء آخر عند كاتب آخر . ومن حسن الحظ أن هذه الصورة المشوشة بدأت تصفو تدريجياً ، والفضل يرجع إلى تبادل الأفكار والكلمات الذي يوفره حاليا كل من ذلك القدر الكبير من الأدب المطبوع ، وتنامي عدد المتعلمين المهتمين بقراءته .

وهناك عامل آخر أسهم في غموض اللغة العربية ، وهو صرامة النحو العربي بوصفه مجموعة إضافية معقدة مكونة من قواعد صعبة وقوانين تقيد تماماً حرية المفكر العربي . وحقيقة القبول بغموض المعنى من ناحية ، والإصرار الشديد على مراعاة المظاهر الشكلية والنحوية الصارمة للغة من ناحية أخرى يضاعفان بطبيعة الحال النزعة الفضلى جداً عند الإنسان في أن يكون لينا متسامحاً . وطالما أن الكاتب العربي الناجح منتبه إلى المظاهر النحوية والإصطلاحية لكتابته ، فعليه أن يجعلها قابلة للفهم تماماً. فواجبه لا يمتد إلى أكثر من أن يجعل معناه محددا جليا لا لبس

فيه . وربما يقيد نفسه كثيراً ، في معظم الحالات ، بنظام من القوالب اللفظية (التي يتذكرها لأن كل شخص يستعملها بالطريقة الدقيقة نفسها) ليضفي صياغة تعبيرية على أفكاره . وبدلا من أن يتعامل مع أدواته اللغوية ليجعلها توصل معانيه وأفكاره بأسلوب مناسب - بدلاً من هذا ، يجبر هذه المعاني والأفكار على تكييف نفسها وفق البنى اللغوية الجاهزة التي يستعيرها من الاستعمال العام. ويُعد هذا التوجه واضحا إلى درجة أن المراقبين من غير العرب ، اللذين كان لهم اتصال يسير بالثقافة العربية قد لاحظوه، مثل : السير والترسكوت Sir Walter Scott في روايته الموسومة بـ : الطلسمان The Talisman .

ويؤدي هذا الغموض المقترن بالصرامة إلى فقر نسبي في الانتباه إلى جوانب الربط بين الجمل . ويمكن في الغالب أن نقرأ جملة عربية ، أو حتى فقرة من صفحتين أو أكثر ، استعمل فيها الضمير الشخصي نفسه لمراجع سابقة مختلفة . والكلمات والملحوظات التي تعد ضرورية في الإنجليزية والفرنسية والألمانية أو أية لغة أوربية أخرى تكاد تغيب تماماً عن كثير من النثر العربي. وطالما أن بإمكان القارئ أن يبذل جهده ومقدرته في فهم

المعنى بتخمينه والتحقق منه، فالكاتب لا يبدو مضطرا إلى الإفصاح عن ما في نفسه

وأبلغ شاهد على حالة كهذه يتمثل في بيت الشعر الذي يعني إذا ما ترجمناه حرفياً : « لا أحد يشبهه بين الناس ، إلا مملكا ، أبو أمه ، أبوه ، حي ، يشابهه[٦] ويقصد بالبيت مدح خال الملك طالما ألاّ أحد يشبهه إلا ابن اخته أي الملك . وما يؤكد أن الترجمة ليست مصدر غموض البيت أن من يستطيع فهمه ، حتى في العربية ، قليل من العرب المتعلمين .

ومع الأخذ في الحسبان الدور العظيم الذي تقوم به اللغة في حياة الإنسان النفسية ، سيكون من المدهش كثيراً ألا تتأثر حياة العربي المتعلم بالقيود التي يضعها غموض لغته الفكري وصرامتها على قرائيته وكتابيته . ونجد الدليل على هذا عند المراقبين الأجانب المتنورين الموجودين في العالم العربي ، فقد تساءلوا عن عدم إظهار العربي الذي يُبدي ألمعية فيما يتعلق بمجال أو مجالات تخصصه - تساءلوا عن عدم إظهاره ألمعية مماثلة فيما يتعلق بالمجالات الأخرى بوجه عام . ويبدو أن التدريب في أي مجال من المجالات يُخلص العربي من القيود العامة (وبخاصة

اللغوية) التي يخضع لها عندما يكون هذا المجال داخلا فقط ضمن مجالات مترابطة ترابطاً وثيقاً ،لكن هذا التدريب لا يخلص العربي من هذه القيود في كل مجالات الحياة ، وعلى هذا تؤكد الملاحظة - أيضاً - أن الضرر لا يتعذر إصلاحه . ويبدو أن خبرة الكاتب في اختبار عدد قليل من العرب الذين هم على مستوى عالٍ من الألمعية باستعمال طريقة رورجاتش Rorschach - تؤيد الاستنباطات المستقلة السابقة . ومع أن هؤلاء العرب قد كشفوا عن ألمعية أعلى بدرجة كبيرة وألمعية وظيفية أدنى ، فقد كشفوا أيضاً عن دقة كبيرة في إدراكهم للشكل والوقوف عليه - بدءاً من مستوى عال من إدراك الشكل وصياغة مفهوم له في المجالات التي يتخصصون فيها أو يهتمون بها وانتهاء بمستوى متدن تماماً من إدراك الشكل وصياغة مفهوم له في المجالات الأخرى . هذه التباينات الواضحة في التسجيلات التي لدى رورجاتش عن أمريكيين متساوين في التعليم العالي والألمعية - يمكن أن تكون نذير شؤم ومؤشراً من موشرات ازدواج الشخصية، غير أن هذه التناقضات في تسجيلات الرعايا العرب إنما ترجع إلى خصوصيات ثقافية أكثر من كونها خصوصيات فردية .

ولا يمكن ، بطبيعة الحال ، أن نعزو تماماً المستوى المنخفض لعمليات الفهم والإدراك، وللذكاء الوظيفي - مقابلاً بالاحتمالي لهؤلاء العرب المتفوقين- إلى التأثير التقييدي للغة . ومن الطبيعي أن يكون نمط حياتهم وخبرتهم على مستوى كبير من الأهمية . ومع هذا ، هناك سبب وجيه يجعلنا نعتقد أن القيود اللغوية مسئولة مسئولية جزئية ، على الأقل ، عن الأداء المنخفض لهؤلاء العرب المتفوقين مثلما هي مسئولة عن الغموض العام الموجود في الكتابة العربية - وعن الافتقار العام إلى التنظيم الذي يحكم الحياة في العالم العربي المعاصر . على أنه بالتجربة وحدها يمكن تحديد المدى والطبيعة الدقيقة لتأثير الغموض الفكري والصرامة الشكلية في اللغة العربية على فهم العرب وإدراكهم وتفكيرهم .

الإفراط في التركيز على الرموز اللغوية :

يبدو أن الأدب العربي واللغة العربية يبالغان كثيراً في التركيز على أهمية الكلمات لذاتها [بوصفها أصواتا] معطين لمعناها عناية أقل مما عليه الحالة نفسها عادة في أدب الغرب ولغاته. التلاعب بالكلمات ، على سبيل المثال ، عنصر مهم في

وتؤثر على موقف الناس تجاهها . ويُعد الاتجاه نحو مناسبة الفكرة للكلمة أو لمجموعة من الكلمات بدلاً من أن تناسب الكلمةُ الفكرة - نتيجة للاستبدال النفسي للكلمات بالأفكار فتصبح الكلمات بديلات للأفكار لا ممثلات لها . وحكاية القاضي الشهيرة ، مع العربي الذي فقد منصبه لأن من هو أرفع منه أراد فقط أن يشبع رغبته بقليل من التلاعب اللفظي ، تعد توضيحاً جيداً لهذه الظاهرة يصل بها إلى أبعد مدى لها .

وقد جاء أمر عزل القاضي كالتالي : أيها القاضي بِقُم قد عزلناك فَقُمْ ، أي : لقد عزلناك أيها القاضي بمدينة قم فتخل عن منصبك . وقد جاء التلاعب بالكلمات في سجع كلمتي : « قُمْ » إسما للمدينة و « قُمْ »» فعلَ أمر .

والأمر هنا تنحية واضحة للصور الإدراكية الحسية بالصور اللغوية التي تعامل ، من أجل كل الأغراض العملية ، كما لو كانت الشيء الحقيقي لا على أنها تمثيل لغوي فقط له . وكما يمكن

توقعه ، بعض الأخطاء في الاستنتاج المنجز في العربية (أكثر مما هو ملاحظ في علم دلالة الألفاظ للغات التحليلية) يرجع ، على وجه الحصر ، إلى الحيرة بين الكلمات والأشياء التي تمثلها هذه الكلمات .

وربما يكون التركيز المبالغ على قيمة الكلمات قد تقوّى كثيراً بالمتعة السابق ذكرها، الناشئة من أصوات الكلمات ومن الإيقاع والتناغم الحاصلين من ضم الكلمات بعضها إلى بعض وتركيبها . والشعر العربي قائم - إلى مدى أكبر مما في الشعر الإنجليزي والفرنسي - على تأثير هذه الأصوات أو المجموعات من الأصوات. وتبلغ القافية من الأهمية حدا يصعب معه إتاحة الفرصة لدراسته وتدبره .والشغف بأصوات الكلمات عظيم جداً في الأدب العربي إلى درجة أن الكثيرين مازالوا يكتبون في شكل لطيف من السجع ، وهو أسلوب قديم للنثر المقفى الذي يشبه التأنق اللفظي في الإنجليزية ، ولكن مع تركيز قليل جداً على الجناس الإستهلالي [تكرير حرف أو أكثر في مستهل لفظتين متجاورتين] . ومع تركيز أكثر على تقنية نهايات الكلمات . ولا يعد الكاتب جيداً إلا إذا كان نثره يُظهر احتفاء بتقفية الكلمات وتناغمها . وينبغي أن تنقل

الكلمات بعض معانيها خلال التأثيرات الناشئة من أصواتها . وعن طريق فرض قيمة كبيرة للكلمات ، يُعد هذا الاحتفاء بالأصوات - أيضاً - عاملاً مساعداً على تعزيز خاصة المحافظة في اللغة العربية ، وعلى مضاعفة الغموض في معناها .

مرة أخرى، ليس التوكيد على الأصوات في العربية ظاهرة فريدة فكل اللغات تهتم بأصوات الكلمات ، حتى أن بعض النظريات تعلل أصل اللغة بتأثيرات محاكاة الأصوات ، لكن ما ينبغي توكيده هنا هو أنه كلما كانت الثقافة أقل تحليلية بدت أكثر توكيداً في هذا الاتجاه . وما يزال الأدب العربي المعاصر يحتفظ بهذا التوكيد من ثقافة أقل تقدماً .

وإذن فتأثير التركيز الكثير على قيمة الكلمات وأصواتها على نفسية العرب يتوافق مع ما قيل سابقاً ، غير أن المرء ربما يستمر في إبراز ما مفاده أنه مع تزايد الغموض اللغوي يتزايد أيضاً الغموض العام في كل أوضاع الحياة ، كما يؤدي هذا الغموض اللغوي إلى تناقص في التفكير والخيال خلال استبدال الكلمات عوضا عن ما تمثله . وهذا الموضوع الجلي لهذه الظاهرة في الثقافة الغربية واضح من خلال الذُهاني وبخاصة الفُصامي

الذي تكف كلماته عن أن تعني الأشياء نفسها التي تعنيها للغالبية من الناس . هذه « السلطة الكلامية » المتطرفة يستحيل الوقوف عليها بطبيعة الحال في الاستعمال العادي للعربية . ولكنْ في مصر ، حيث اهتمام العربية الأصلية بالأصوات قد تعزز كثيراً جداً عن طريق الاتصال بثقافات أقل تقدماً في أفريقيا ، وحيث موسيقية اللغة واضحة حتى لهؤلاء الذين لا يفهمونها - يلتقي أحدٌ ما أحدَ أنصاف المتعلمين ، الذي يبالغ كثيراً في الظرف المصري (الذي يتمثل بشكل رئيس في التلاعب بالكلمات وبخاصة أصواتها) إلى درجة أن يعطي انطباعاً بأنه قد كف عن التفكير في معنى الكلمات تماماً ، وأنه يستعمل حقاً نوعا من السلطة الكلامية .

وقد جاء هذا الاستطراد الظاهري ليوضح نوعاً آخر للتأثير الذي يتركه الاهتمام الشديد بقيمة الكلمات على نفسية من يستعملونها ، وبشكل رئيس في تخفيض مستوى الأداء الذهني . وعندما يكون استخدام الكلمات من أجلها فقط فإن هذا يبشر بنكوص فكري ، وعلى نحو معاكس عندما يبدأ هذا النكوص يكون هناك تركيز على الكلمات . وقد انتبه شكسبير لهذه الظاهرة

قبل الاكتشافات الحديثة لعلم النفس بوقت طويل : ففي يوليوس قيصر جعل الدهماء تقتل الشاعر سينّا Cinna لأنه صادف أن كان اسمه اسمَ أحد المتآمرين .

الاستجابات العاطفية النمطية :

أثناء إنشاد الشعر أو النثر العربي ، وأثناء التحدث بالعربية الفصحى ، وأثناء ترتيل القرآن بخاصة ينبغي أن يُظهر (في الغالب) العربي المتعلم إشارات صريحة لعواطفه ، ومن خلال البنية الخصوصية للعربية نفسها أمكن الحفاظ على الطبيعة الموسيقية الشجية للعربية الفصحى، فقواعد التصريف والتوافق التي لا تنتهي ، وتغيير الحروف المتحركة والساكنة علاوة على مواقع النبر الموجودة في كل مكان وفق المعنى- كل ذلك يجعل موسيقية اللغة (بالمعنى النفسي للمصطلح) جزءاً ملازماً لها . ويبلغ هذا التأثير من القوة حدا سَمح بتردد هذا القول: إن الشخص في اللغات الأوربية يتعين عليه أن يقرأ حتى يمكن له أن يفهم ، في حين أنه في اللغة العربية يتعين عليه أن يفهم كي يقرأ .

من هنا ، فعملية القراءة أو التحدث بحد ذاتها في العربية

تتطلب تغييرات صوتية عديدة تحمل معها العناصر النفسية للعواطف . وليس مهماً أن يكون العربي ، الذي يرتل وينشد ، مالكاً لهذه المشاعر لأن التأثيرات يغلب عليها أن تظهر في آخر الأمر ، حتى وإن كانت العاطفة نفسها غائبة في أول الأمر، وأكثر من هذا أن الحالة العاطفية للمتحدث معدية للمشاهدين والمستمعين. وبما أن العربي الأمي معرض باستمرار لهذه التأثرية التصادفية خلال استماعه إلى ترتيل القرآن ، ومن خلال الصلاة (هذه التأثرية قوة نفسية فعالة جداً تساعد أحياناً على تنويم مغناطيسي جماعي عميق للدراويش) وحتى خلال الاستماع إلى الإذاعة - فإن عاميته المحسوسة أيضاً قد أصبحت موسيقية وعاطفية أكثر مما كان ينبغي لها، بعد أن يكون قد تم تكييفها مع درجة الإيقاع الصوتي في الشكل الفصيح .

والعربي ، حتى عندما يتكلم لغة أجنبية ، يكشف عن دلائل العاطفية والاندفاعية اللتين ربما لا يكون حتى على وعي بهما . وهذا يخلق بطبيعة الحال مقداراً كبيراً من سوء الفهم . وربما يظن الأجنبي أن العربي ، من خلال أسلوبه في الكلام ، مُثار أو مُغضَب أو مُحِب بينما هو في الحقيقة ليس كذلك ، ومن ناحية أخرى ربما

يظن العربي أن الأجنبي هادئ ورائق ، بينما هو في الواقع مُحَبط أو منزعج جداً .

يبدو لنا الآن تبلور ظاهرتين من خلال بحث الموسيقية المتركبة بصرامة في اللغة العربية بجانبيها الفصيح والعامي . أولاهما أن موسيقاها تحمل معها بحق المكونات الوظائفية للعاطفية ، بعبارة أخرى : فعل الكلام أو القراءة الحقيقيين يخلق أو يؤكد تأثيرات كبيرة طبقاً لما يمكن تأويله من المعنى أو الوضع أو من كليهما . والحالة النفسية التأثرية التي تنشأ عن ذلك بلا مسوغ، أو التي تعجل بها العادات اللغوية البارعة التي تبلغ من الصغر حداً يصعب معه الإحساس بها - تقلل القدرة على التفكير بوضوح . وتعد الحالة النفسية التأثرية ، بالإضافة إلى التركيز على الكلمات العربية لذاتها ، مسئولة عن الحجج الواهية ، في بعض الأحيان ، التي يسوقها متحدثون هم في الحقيقة أذكياء متعلمون . وطالما أن هذه العاطفية معدية فالظاهرة الثانية هي أن تفاعل تأثرات المتناظرين يقود إلى حلزون ضار من العاطفية المتزايدة يقلل في النهاية القدرة على إعمال العقل والتفكير إلى الحد الأدنى ويسهم في الجدل والنزاع . ويشيع النزاع في المناقشات والمناظرات العربية

إلى درجة أنه يعد معياراً في كثير من الأحيان ، وأنه مقبول عن طيب خاطر وحتى بشيء من الاستمتاع في التجمعات العربية .

التأكيد الزائد والمبالغة :

تعج اللغة العربية بصيغ من التأكيد والمبالغة ، ففيها النون الشائعة في نهاية الكلمات المراد التركيز عليها ، وفيها تضعيف أصوات بعض الحروف الساكنة لخلق التأثير الأقوى المرغوب ، وفيها أيضاً الكلمتان المتكررتان «إنّ» و « قد » المستعملتان لتوكيد عدد كبير من الجمل . وهناك صيغ توكيد مثل تكرار الضمائر وكلمات أخرى معينة لغرض فهم معناها أو دلالتها. وإلى جانب هذه الأنواع النحوية للتوكيد الزائد هناك الوسائل البلاغية والأسلوبية العديدة الموظفة حتى لتحقيق مبالغة أكثر ، كما يكثر استعمال الاستعارات والتشبيهات الرائعة . والمجموعة الطويلة من الصفات التي تقيد معنى الكلمة نفسها مألوفة تماماً . ورغم التطور التدريجي نحو الإيجاز ، إلا أن أسلوب النثر العربي لا يزال منمقاً إلى الحد الذي يصعب معه عدّه (مقارنة بالمستويات القابلة للتطبيق والاستعمال في النثر الانجليزي) حقيقياً وواقعياً.

ذكرنا من قبل أن اللغة العربية لا تزال تتسم إلى حد كبير بشموليتها البدائية إلى حد ما ، وبإطنابيتها وصرامتها . ويبقى أن نشير إلى نزعة مناقضة تتمثل في الانتباه الشديد إلى التفاصيل الدقيقة ولكن دون إعادة توحيد لهذه التفاصيل في كلٍ مركب منظم تنظيماً جيداً ، فعندما كان الشاعر العربي القديم يشعر شعوراً قوياً (أو يفكر بأن عليه أن يشعر بقوة) حول أي شيء أيا كان ، مثل الآثار التي تخلفها عائلة محبوبته الحقيقية أو الخيالية على الرمال ، لم تقنعه الصورة الشاملة العادية لهذا الشيء ، ولهذا ذهب إلى الطرف المعاكس لتفصيل دقيق مع تكراره للفكرة نفسها بكلمات مختلفة وإهمال تام للمظاهر الأخرى للوضع لكي يتحول فقط بشكل مفاجئ إلى موضوع آخر ويركز عليه بالطريقة نفسها . ويمكن إعطاء تفسير آخر لاستعمال العربي مئات الأسماء لأشياء مثل الأسد والسيف والجَمل في حين أن هذه الأسماء كانت في الأصل صفات أطلقها خياله المُثار على أشياء استحوذت على اهتمامه وخياله الخاطفين القويين . وهذا - كما سبق القول - موجود في كل اللغات ولكنه - كما يبدو - يحتل مكاناً بارزاً في أسلوب الأدب العربي .

وربما يكون هذا التركيز الزائد على التفاصيل، دون إعطاء صورة منظمة أو شاملة للكل ، رداً فعل للمرحلة المبكرة من الغموض وتعويضا عنها . وعندما يكون الناس غير متأكدين من وضوح أفكارهم يلجئون إلى التعويض عن ذلك بالإعادة والتكرار ولو بكلمات مختلفة ، غير مدركين تماماً أنهم أنْفَسَهم إذا لم يستطيعوا « تَبيُّن » ما يعنونه بوضوح ، فالأرجح ألا يفهمهم الآخرون أيضاً . ويُعد التكرار ، بمعنى من المعاني ، محاولة من محاولات توضيح النفس والتوضيح للآخرين .

ومن الترجمة يتضح دليل آخر على الحاجة إلى التركيز والمبالغة في اللغة العربية ، إذ يصعب ترجمة فقرة بسيطة من الانجليزية إلى العربية حرفيا دون أن تفقد جزءاً من معناها ، وهؤلاء الذين يقرأون الفقرة نفسها بالإنجليزية والعربية سيحصلون على معنى أكثر في الانجليزية (عندما تكون الفقرة العربية ترجمة حرفية) لأن - ضمن أشياء أخرى - جزءاً كبيراً من المعنى يضيع في الترجمة العربية إذا لم تُضف أدوات التوكيد والمبالغة . ومن المهم أن نلاحظ أنه حتى العرب الذين تكون انجليزيتهم دون عربيتهم - حتى هؤلاء يفضلون غالباً قراءة المادة المهمة في أصلها

الإنجليزي. وأحد الأسباب هو فشل الترجمة العربية في استعمال ما يكفي من التوكيد من خلال المبالغة والإفراط فيها استهدافاً لتوصيل ما عُبر عنه ببساطة في الانجليزية إلى القارئ العربي .

وليس بالإمكان هنا تناول التفسير النفسي الكامل لظاهرتي التوكيد والمبالغة ، ولكن ينبغي أن يكون واضحاً أننا بعد أن نرسي أصول تقليد لغوي كهذا ، فإنه لن يفشل في أن تكون له نتائج بالغة الأثر . والتأثير النفسي يصدق في حالة التعبيرات العامية . ومضامين التأثير النفسي (التي تنطبق على المتعلمين والأميين) إثنان : ففي المقام الأول يضطر العرب إلى الإفراط في التوكيد والمبالغة في كل شكل من أشكال التواصل ، وإلا فإنه بغير ذلك تصبح فرصة عدم فهمهم تماماً كبيرة جداً . وإذا ما عبر عربي عن ما يريده بالضبط بدون هذه المبالغة المطلوبة فقد يظن العرب الآخرون هنا أنه يعني العكس . وهذه الحقيقة هي التي تؤدي إلى سوء الفهم من جانب غير العرب الذين لا يعون أن المتكلم العربي إنما يسير على نهج تقليدي عربي فحسب . ثانياً : (وهو نتيجة طبيعية لأولاً) فشل العرب في إدراك أن الآخرين يعنون ما يقولون تماماً إذا ما عبروا عنه بطريقة بسيطة خالية من

التحسين ، بل إن التكرار ربما لا يكفي لجعل العربي يدرك أن التواصل لا يمكن أن يعني عكس ما يريده المتكلم . وكلمة «لا» بالإنجليزية (No) قد تعني لكثير من العرب الموافقةَ التي يُعبر عنها بطريقة غير مباشرة ، كما تعني أيضاً موافقة المرأة المغناج ، يضاف إلى ذلك أن أية موافقة بسيطة قد تعني الرفض من جانب السياسي المنافق .

وقد سنحت الفرصة لصاحب هذا البحث بملاحظة مثال واضح لرد الفعل الثنائي هذا في إطار موقف لغوي عندما كان يستمع إلى تقرير سري لاثنين من الأصدقاء :

فتاة انجليزية وشاب عربي ؛ فقد اشتكت الفتاة أن صديقها العربي كان (أ) يضايقها بنواياه وتصريحاته عن المباشرة الجنسية . (ب) أنه رفض أن يأخذ كلمة «لا» بالانجليزية (No) مأخذ الجد عندما أوضحت له أنها لا تهتم به مطلقاً . وأسَرَّ لي الشاب العربي (أ) أن الفتاة كانت تشجعه على معاشرتها جنسياً و (ب) أنه إلى ذلك الحين لم يكشف إلا عن القليل من اهتمامه وإعجابه . والواقع أن الإثنين كانا أمينين وصادقين مع نفسيهما ، ولكنهما لم يدركا مدى التناقض الذي يمكن أن ينشأ فيما بين الإفراط في

التوكيد والمبالغة العربيين . والبساطة والتقليل من المبالغة البريطانيين .

مستويان للحياة :

لكل إنسان ذاتان على الأقل : إحداهما الشخص الذي يفكر أنه يجب أن يكُونه، والأخرى الشخص الذي يحب أن يكُونه . وكلنا نملك مايسميه علماء النفس الأنا المثالية أو الذات المثالية ، ونهتم كثيراً بالبرهنة لأنفسنا على أن ما أجبرنا أن نَكُونه ليس أحسن ما فينا بل هو مَمْليّ علينا بالضرورة ، وفي أعماقنا نشعر بأننا أعظم وأكثر حكمة وذكاء وعلوا وتفوقا في كل مجال . وليس هذا مجال الدراسة المعقدة للمظاهر النفسية للذات المثالية ، وبخاصة مثلما هي موجودة بين العرب المعاصرين .

عرفنا سابقاً أن العربية الفصيحة ليست لغة الأفكار المجردة المتفوقة فحسب، ولكنها أيضاً لغة كل الأشياء التي تتسامى عن موجودات الوجود العربي البسيط. لهذا يصبح من المفهوم أن هذه العربية الفصيحة ستكون الوسيط المتميز لذات العرب المثالية ، وبخاصة العرب المتعلمين ، لكنّ الذات المثالية للعرب الأميين أيضاً

لها دعواها المبهمة على لغة النخبة . إن الفجوة المرتقبة بين ذات العربي الواقعية وذاته المثالية تصبح أكبر عندما تقوى بوضع الفجوة بين العربية الفصحى التي لها منزلة في الذات المثالية ، والعربية العامية التي تحتكر الوظائف العملية للحياة الحقيقية . وعندما يفكر العربي في ذاته المثالية فهو يفكر باللغة التي تعلمها من القراءة والاستماع أي بالعربية الفصيحة . ولكنه في حياته اليومية يتحرر من التمييز بين ذاته المثالية وما يفكر حقاً فيه ويعمله ، والفضل يعود إلى استعماله اللغة العامية .

والنتيجة النفسية لذلك هي أنه بينما يمكن أن يعبر العربي عن نفسه بنغمة أخلاقية غاية في التشامخ سيكون بوسعه - أيضاً - وفي ظروف خاصة أن ينزل عن طيب خاطر إلى مستوى أخلاقي أقل ، وما هو مهم أنه لا يشعر طول الوقت إلا بقليل من التناقض بين هذين الطبعين من الفعل . وتوجد مثل هذه التناقضات بالتأكيد في الحضارة الغربية لكنها في العالم العربي متكررة وواضحة بما يكفي أن تعوق محاولات الطلاب الأجانب عن فهم العرب . وفي رأيي أن الفصل بين العربية الفصحى (الذات المثالية) من ناحية، والعربية العامية (الذات الواقعية) من الناحية الأخرى ، بالإضافة

إلى الاضطرار إلى المغالاة والتأكيد الزائد والمبالغة ، يعد سببا رئيسا لبروز هذا التناقض في بنية الشخصية العربية.

ولسنا هنا في حاجة إلى التذكير بأن الفصل الذي يسبب هذه النتائج يمكن معالجته عن طريق جهات خارجية لرفع الذات الواقعية للعرب في اتجاه قمة ذاتهم المثالية ، على الأقل بفترة قصيرة عندما تكون المحاولات الأخيرة مطلوبة . وقد نشأ هذا الوضع من حين إلى آخر علي أيدي قادة وسياسيين أذكياء ، بعضهم (مثل لورنس العرب) لم يكونوا عربا .

وربما تكون نتائج هذه المقالة مزعجة لبعض العرب ، وبخاصة القوميين العرب الذين لا يستطيعون ، مثلهم مثل قوميي الأمم الأخرى ، تحمل أية عبارة لا تُطري وطنهم أو شعبهم بصرف النظر عما إذا كان هذا الإطراء حقاً أو معتدلاً أو نافعاً ، فالدراسات النفسية لفرد أو شعب لا تهدف في الحقيقة إلى الإطراء ؛ فمن طبيعة عمق علم النفس أن يكتشف الأمور التي يهتم الناس بها ويرغبونها كثيراً ، فهذا أفضل من أن تبقى خافية حتى عن هؤلاء أنفسهم. وإذا لم تكتشف هذه الأمور فعلماء النفس العرب والمتعلمون يستطيعون تقدير المشكلة وقبول التحدي الذي تظهره .

هوامـــش

(١ ـ ٥) هوامش أصلية و (٦) تعليق من المترجم

١- ي شوبي أحد علماء النفس وذو خبرة في كل من علم النفس الاجتماعي والإكلينيكي . وقد ساعدته اهتماماته اللغوية متضافرة مع حقيقة أن العربية كانت لغته الأولى على تناول هذا الموضوع الدقيق . ورغم أنه قد قام بكثير من الدراسات للحياة العربية وثقافتها إلا أنه يقر بأن مقالته هذه هي مجرد دراسة نظرية ترمي إلى إثارة الاهتمام وفتح آفاق جديدة للبحث . وسوف ينشر قريباً في المجالات المتخصصة المزيد من المناقشات الفنية المفصلة عن الخطوط النفسية للمنطق الذي أوصله إلى نتائج هذه المقالة .

٢- يعد البحث الذي كتبه ايرنيست جونز Ernest Jones وتناول فيه تأثير اللغة الإنجليزية على نفسية الشعب الإنجليزي ، ونشر في مجلته :

Essays on Applied Pshcho- Analysis (لندن-١٩٢٣) -يعد أفضل مثال على هذه الدراسة النفسية .

٣- الأستاذ أوتو كلينبرج Otto Klneberg هو الذي أوحى إلى كاتب البحث بفكرة التشابه في اللغة الصينية .

٤- نيويورك ١٩٤٠ م

٥- راجع مقال أو جيسبيرسين O Jesbersen الموسوم ب : اللغة طبيعتها وتطورها وأصلها (لندن ١٩٢٢ م) .

٦- يقصد بيت الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمــه حي أبــوه يقــاربــه

المقالة الثانية

الازدواج اللغـوي

س . ا . فيرجسون C. A. ferguson

نشرت هذه المقالة بمجلة "Word" المجلد الخامس عشر ١٩٥٩م
وحق نشرها لهذه المجلة

الازدواج اللغـوي

س . ا . فيرجسون C. A. ferguson

في مجتمعات لغوية عديدة ، يستعمل بعض المتحدثين في ظروف مختلفة نمطين أو أكثر للغة واحدة . وربما يكون أشهر مثال لهذا هو اللغة المعيارية واللهجة الإقليمية كما هما مستعملتان - مثلاً - في الإيطالية أو الفارسية إذ يتكلم كثير من الناس لهجتهم المحلية داخل منازلهم أو بين أفراد العائلة أو مع الأصدقاء من منطقة اللهجة نفسها لكنهم يستخدمون اللغة المعيارية عند التواصل مع من يتكلمون لهجات أخرى ، أو في المناسبات العامة. هناك ، في المقابل ، أمثلة مختلفة تماماً لاستعمال نمطين للغةٍ واحدة في المجتمع اللغوي الواحد ، ففي بغداد يتحدث العرب المسيحيون لهجة «العربية المسيحية » عندما يتحدث بعضهم مع بعض ، لكنهم يتحدثون اللهجة البغدادية العامة « العربية الإسلامية » عندما يكونون ضمن جماعة مختلطة. وقد تجدد مؤخراً الاهتمام بدراسة تطور اللغات المعيارية وخصائصها . (راجع كلوس بصفة خاصة Kloss ١٩٥٢ م ومقدمته القيمة عن المعايرة بوجه عام). واستمراراً لهذا الخط من الاهتمام فإن هذا البحث يهدف إلى

العناية بدراسة نوع محدد من المعيارية إذ نورد فيه ، جنباً إلى جنب ، نمطين للغة واحدة ينتظمان الجماعة اللغوية كلها ، ولكل منهما مهمة محددة يقوم بها.والمصطلح (Diglossia) «الازدواج اللغوي» مَصوغ في هذا البحث في ضوء المصطلح الفرنسي (Diglossie) الذي يطلق على هذا الوضع نظراً إلى أنه لا يوجد في الإنجليزية كلمة لها مثل هذه الدلالة . وتستعمل اللغات الأوربية الأخرى بوجه عام كلمة (Diglossia) عوضاً عن كلمة (Bilingualism) «الثنائية اللغوية» في نفس هذا المعنى الخاص أيضاً . (المصطلحات : لغة ولهجة ونمط مستعملة هنا دون تعريف أو تحديد دقيق . ونأمل أن ترد متفقة تماماً مع الاستعمال السائد لها حتى تكون واضحة في ما يتعلق بأهداف الدراسة . وقد استعمل مصطلح النمط الفوقي « Super posed variety هنا أيضاً دون تحديد، ويعني أن النمط الذي نحن بصدده ليس النمط الأصلي الأساسي للمتكلمين المعنيين ولكن قد يمكن تعلمه إضافة إلى النمط الأصلي . وأخيراً فهذا البحث لا يحاول أن يدرس الوضع المشابه المتمثل في وجود لغتين متميزتين (متقاربتين أو غير متقاربتين) تُستعملان جنباً إلى جنب في مجتمع

لغوي واحد ، ولكل منهما وظيفة محددة واضحة .) [١]

ومن المرجح أن يكون هذا الوضع الخاص في المجتمعات اللغوية واسع الانتشار على الرغم من ندرة الإشارة إليه بلْهَ وصفَه وصفاً مُرضياً . وربما يكون الشرح الكامل لهذا الوضع عونا كبيراً لنا في التعامل مع مشكلات الوصف اللغوي وفي علم اللغة التاريخي وفي دراسة رموز اللغة . ولابد من النظر إلى هذه الدراسة بوصفها تمهيداً من منظور أنها تتطلب تجميع الكثير من المعطيات التاريخية والوصفية ، إذ أن هدفها تشخيص الازدواج اللغوي عن طريق اختيار أربعة مجتمعات لغوية ولغاتها (ما سنطلق عليه فيما بعد اللغات المحدَّدة التي تنتمي انتماء واضحاً إلى هذه المنظومة المجتمعية ، ثم وصف الخصائص المشتركة بين هذه اللغات ، ونقصد الخصائص ذات العلاقة بهذا التصنيف اللغوي . واللغات المحددة التي اخترناها هي العربية واليونانية الحديثة والألمانية السويسرية والكريولية Creole الهيتية . (راجع المراجع الواردة في نهاية البحث)

وقبل أن نتطرق إلى الوصف لابد من الإشارة إلى أنه ليس من المفترض أن يكون الازدواج اللغوي تلك المرحلة التي تظهر

دائماً عند نقطة معينة فقط في مرحلة ما من مراحل التطور مثلاً في عملية المعايرة . الازدواج اللغوي ربما يتطور من أصول متنوعة وينتهي إلى أوضاع لغوية مختلفة . وفيما يتعلق باللغات المحددة الأربع يعود الازدواج في اللغة العربية - فيما يبدو - إلى حدود معرفتنا بها . كما بقيت العربية « الفصحى » الفوقية مستقرة نسبياً ، في حين أن جذور الازدواج في اليونانية يرجع قروناً عديدة، ولكنه غدا متطوراً بشكل كامل عند بداية القرن التاسع عشر فقط مع نهضة الأدب اليوناني وإبداع لغة أدبية مؤسسة في جزء كبير منها على أنماط سابقة للغة اليونانية الأدبية . وقد نشأ الازدواج في الألمانية السويسرية نتيجة انعزال ديني وسياسي عن مراكز المعايرة اللغوية الألمانية، بينما نشأ الازدواج في الكريولية الهيتية عن « كرولة » Creolization لفرنسية هجينة مع فرنسية فصيحة جاءت فيما بعد لتقوم بمهمة النمط الفوقي . ومع ذلك فسنورد في نهاية هذا البحث شيئاً من التأمل حول احتمالات التطور .

ومن المفيد أن نلاحظ المشكلات التي ينطوي عليها استشهادنا بمفردات من هذه اللغات ، بطريقة مناسبة دقيقة :

المشكلة الأولي : هل لابد من ذكر المفردات في صيغها الفصحى أو العامية ، أو في كليهما؟ الثانية : إذا استشهدنا بهذه الكلمات في صيغها العامية ، فأي نوع من العامية يجب اختياره؟ في اليونانية والكريولية الهيتية يبدو واضحاً أن لغة الحديث المعتادة للمتعلمين من أثينا وبورتو برنس، كل على حدة ، هي التي ينبغي اختيارها . وفيما يتعلق بالعربية والألمانية السويسرية ينبغي أن يكون الاختيار عرفيا إذ أن لغة الخطاب المعتادة للمتعلمين من القاهرة ومدينة زيورخ هي ما سنستخدمه هنا . الثالثة : أي نوع من التهجية ينبغي استعماله لتمثيل العامية؟ وطالما أنه لا يوجد حالة مقبولة بوجه عام لتدوين العامية فإن شكلاً من أشكال التدوين « الفونيمي » أو الفونيمي الواقعي يمكن أن يكون شكلاً مناسباً.

وقد جاء اختيارنا على النحو التالي :

فيما يتعلق بالكريولية الهيتية اخترنا هجاء ماكونيل لوباش Mc Connell Laubach لأنه فونيمي على نحو تقريبي وبسيط طباعيا . وفيما يختص باليونانية فالتدوين مأخوذ من كتيبٍ مختصر « اليونانية المتكلمة » (كهانا وآخرون ١٩٤٥ م Kahane) نظراً إلى قصدنا أن يكون التدوين فونيميا ؛ فكتابة

اليونانية بحروف لغة أخرى تبدو أقل إقناعاً ليس بسبب أن التهجية متنوعة فحسب ولكن - أيضاً - بسبب أنها ذات طابع أصولي في مفرداتها وغير فونيمية تماماً ، وفيما يتعلق بالألمانية السويسرية تُعد التهجية التي أيدها دايت Dieth (١٩٣٨) على الرغم من فشلها في أن تشير إلى كل المقابلات الفونيمية التي قد تشير في بعض الحالات إلى مغايرات صوتية - تعد هذه التهجية مناسبة تماماً ، كما يبدو أنها تنظيم معقول دون تعديل جوهري في أعراف التهجية المستعملة بوجه عام في كتابة المادة اللهجية للألمانية السويسرية . أما العربية -مثلها مثل اليونانية - فتستخدم أبجدية غير رومانية لكن تدوينها بحروف لغة أخرى لا يناسبها مثلما يناسب اليونانية ، وذلك بسبب التباين الهجائي ، ولكن السبب الأقوى هو أن تدوين العربية العامية المصرية لا يوضح الكثير من الصوائت على الإطلاق ، كما يشير التدوين إلى صوائت أخرى بطريقة غامضة في الغالب . والتدوين الذي اخترته يتصل اتصالاً وثيقاً بالأنظمة التقليدية لعلماء اللغات السامية وثقافاتها بحسبان أن هذا التدوين ليس سوى تعديل للأنظمة المصرية التي استخدمها ألتوما Al-toma (١٩٥٧) والمشكلة

الرابعة هي طريقة تمثيل الفصحى فيما يتعلق بالألمانية السويسرية والكريولية الهيتية ، فأبجدية الفرنسية والألمانية المعياريتين يمكن أن تستخدم على الرغم من أن هذا يخفي تشابهات محددة بين أصوات الفصحى والعامية في كلتا الحالتين . وفيما يتعلق باليونانية يمكن أن ندونها إما باستعمال حروف الهجاء المعتادة وإما بحروف لغة أخرى ، ولكن طالما أن معرفتنا بلفظ اليونانية الحديثة أقل انتشاراً من معرفتنا بلفظ كل من الفرنسية والألمانية فإن تأثير أحرف الكتابة الساتر يصبح أكثر خطورة في اليونانية ، ومن ثم فنحن نستخدم التدوين الصوتي عوضا عنه . والعربية هي المشكلة الأكثر أهمية ، والخياران الأكثر وضوحاهما : (١) كتابتها بأحرف لغة أخرى (على أن يقوم المدوِّن بايراد الصوائت التي لم ترد في الكتابة) أو (٢) تدوينها فونيميا مثلما يقرأها ساكن القاهرة . وقد ارتضيت الحل الأول متفقا - مرة ثانية - مع ما ذهب إليه ألتوما .

الوظيفة :

من أهم خصائص الازدواج اللغوي أنه يخصص وظيفة لكل

من الفصحى والعامية ؛ ففي مجموعة معينة من المواقف تكون الفصحى فقط هي المناسبة للاستعمال ، وفي مجموعة أخرى تكون العامية هي الأنسب مع تداخل بسيط جداً بين هاتين المجموعتين . وللإيضاح ، نورد هنا أمثلة للمواقف الممكنة مع إشارة إلى النوع المستعمل فيها عادة :

الموقف	النوع المستعمل فيه
خطب المساجد ومواعظ الكنائس	الفصحى
تعليمات لخدم أو نُدُل أو عمال أو موظفين	العامية
رسائل شخصية	الفصحى
خطب البرلمان والخطب السياسية	الفصحى
محاضرة جامعية	الفصحى
التحدث مع العائلة أو الأصدقاء أو الزملاء	العامية
نشرات الأخبار	الفصحى
المسلسلات الإذاعية	العامية
المقالات الافتتاحية والقصص الإخبارية والتعليق على الصور	الفصحى
التعليق على « الكاريكاتير » السياسي	العامية

الشعر	الفصحى
الأدب الشعبي	العامية

ويصعب علينا المبالغة في تقدير أهمية استعمال النوع المناسب في الموقف المناسب ، فالغريب الذي يتعلم تكُلمَ عامية مضبوطة طليقة ثم يستخدمها في كلام رسمي يصبح عرضة للاستخفاف . وعضو المجتمع اللغويٍّ الذي يستخدم الفصحى في وضع تحدثي صرف ، أو في نشاط غير رسمي كالتبضع يصبح - أيضاً - عرضة للاستخفاف . وفي كل اللغات المحددة من الطبعي جداً أن تجد شخصاً ما يقرأ جهراً من صحيفة مكتوبة بالفصحى ثم يناقش ما قرأ بالعامية . ومن الطبعي أيضاً في كل اللغات المحددة أن تستمع إلى كلام رسمي بالفصحى ثم تناقشه (غالباً مع المتحدث نفسه) بالعامية .

(والوضع في التعليم الرسمي أكثر تعقيداً في الغالب مما هو مشار إليه هنا. فيَ العالم العربي - مثلاً - تُلقى المحاضرات الرسمية في الجامعة بالفصحى ، لكن التطبيقات والشروح واجتماعات الأقسام يغلب عليها أن تكون بالعامية ، وبخاصة في العلوم الطبيعية مقارنة بالعلوم الإنسانية . ومع أن استعمال

المدرسين للعامية في المدارس الثانوية ممنوع نظاماً في بعض الأقطار العربية فإن المدرسين ينفقون جزءاً كبيراً في الغالب من وقتهم في أن يشرحوا بالعامية معنى المادة المدونة بالفصحى التي تؤلف بها الكتب أو تلقى بها المحاضرات) .

والموقفان الأخيران (الشعر ، والأدب الشعبي) من القائمة السابقة يحتاجان إلى تعليق ؛ ففي كل اللغات المحددة هناك بعض الأشياء المكتوبة بالعامية ، وعدد قليل من الشعراء يكتبون باللغتين (الفصحى والعامية) غير أن مكانة النوعين من الشعر مختلفة جداً ، ولدى المجتمع اللغوي كله شعور بأن الشعر « الحقيقي » هو الشعر الفصيح فقط (هذا الوصف لا يناسب تماماً اليونانية الحديثة ؛ فشعر العامية هو الإنتاج الرئيس مقابل شعر الفصحى الذي يسود انطباع عام بأنه مصنوع) . ومن الناحية الأخرى ترد في كل واحدة من اللغات المحددة أمثال معينة وعبارات تأدب معينة أو نحوها بالفصحى حتى وإن استشهد بها الأميون في محادثات عادية. وتقول التقديرات : إن خُمس الأمثال في المخزون النشط للقرويين العرب يأتي بالفصحى (مجلة المجتمع الشرقي الأمريكي ، ١٩٥٥ ، مجلد ٧٥ ، ص ١٢٤ وما بعدها).

المكانة :

يشعر المتحدثون بكل هذه اللغات المحددة أن الفصحى أرفع مكانةً من العامية في عديد من المجالات . وفي بعض الأحيان يكون هذا الشعور قوياً إلى درجة أن الفصحى وحدها تُعد الحقيقة الواقعة وأن العامية غير موجودة . ربما يقول المتكلمون بالعربية – على سبيل المثال – (وبالعامية) : إن فلانا لا يعرف العربية ، وهذا يعني عادة أنه لا يعرف الفصحى على الرغم من أنه قد يكون متحدثاً مؤثراً طلقاً بالعامية . وإذا سأل غيُر متكلم للعربية أحد العرب المتعلمين أن يساعده في أن يتكلم العربية فإنه (العربي) كما هو معتاد سيحاول أن يعلمه صيغ الفصحى مصراً على أن هذه الصيغ هي ما يجب استعماله . وكثيراً ما يؤكد العرب المتعلمون عدم استعمالهم للعامية رغم حقيقة أن الملاحظة المباشرة تظهر أنهم يستعملونها باستمرار في كل المحادثات العادية . ويتصرف المتعلمون من المتكلمين بالكريولية الهيتية على نحو مشابه فهم ينكرون وجودها باستمرار مصرين على أنهم دائماً يتكلمون الفرنسية ولا يمكن أن يعد هذا الموقف محاولة متعمدة لتضليل الباحث بل يبدو في الغالب خداعاً للنفس . رعندما يجيب – بحسن

نية - المتكلم المعني فمن الممكن في الغالب أن يتطرق إلى هذه المواقف بأسئلة من قبيل : بأي لغة يتحدث إلى أطفاله وخدمه أو إلى أمه ؟ والرد المقنع جداً هو في العادة من نوع : أوه ، ولكنهم لن يفهموا (صيغة الفصحى أياً كانت هذه الصيغة) .

بل إنه في الأماكن التي يكون فيها الشعور بواقع الفصحى وتفوقها غير قوي جداً - يكون هناك عادة اعتقاد بأن الفصحى ، بطريقة ما ، أكثر جمالاً ومنطقاً وأفضل قدرة علي التعبير عن الأفكار المهمة ونحو ذلك . ويسود هذا الاعتقاد أيضاً عند من يُعد تمكنهم من الفصحى محدوداً تماماً . ولهؤلاء الأمريكيين الذين يودون أن يقَيِّموا الكلام في ضوء فاعلية التواصل يصبح الأمر صدمة عندما يكتشفون أن عديداً من متكلمي لغة من لغات الازدواج اللغوي يفضلون بشكل لافت أن يستمعوا بالفصحى إلى خطاب سياسي أو محاضرة إيضاحية أو إلقاء شعر على أن يستمعوا إلى هذه الأشياء بالعامية حتى وإن كان الأمر أقل وضوحاً لهم مما لو كان بالعامية .

وفي بعض الحالات يرتبط تفوق الفصحى بالدين ، ففي اليونان هناك شعور بأن لغة العهد الجديد هي بالضرورة لغة العهد

القديم نفسها ، كما أن ظهور ترجمة للعهد الجديد باللغة الديموتيقية كان مناسبة لشغب خطير في اليونان عام ١٩٠٣م. ومتحدثو الكريولية الهيتية متعودون بوجه عام على نسخة فرنسية للإنجيل ، بل إن الكنيسة عندما ، تصدر تعاليم أو نحوها ، تلجأ إلى تهجية غاليّة Gallicized بدرجة كبيرة . وفيما يختص بالعربية تُعد الفصحى لغة القرآن، ولهذا فالمعتقد على نطاق واسع أنه « القرآن » في حد ذاته يشكل كلمات الله الحقيقية وأنه خارج حدود الزمان والمكان ، بمعنى أنه موجود قبل بدء زمن خلق الكون.

الموروث الأدبي :

في كل واحدة من هذه اللغات المحددة هناك الكثير من الأدب المكتوب بالفصحى التي تحظى بتقدير عال من المجتمع اللغوي ، وهناك شعور بأن المنتج الأدبي ، المعاصر الفصيح ، من قِبل أفراد هذا المجتمع – جزء من ذلك الأدب ولكن بطريقة مختلفة . وذلك الكثير من الأدب إما أن يكون قد أُنتج قديماً في التاريخ الماضي للمجتمع ، أو أن يكون في حالة من الإنتاج المستمر في مجتمع لغوي آخر تقوم فيه الفصحى مقام النوع المعياري للغة . وعندما

يمثل المنتج الأدبي الكثير فترة زمنية طويلة (كما في العربية أو اليونانية) فإن الكتاب المعاصرين (والقراء) يغلب عليهم أن يعدّوا استعمال كلمات وصيغ ربما كانت سائدة فقط في فترة من فترات التاريخ الأدبي ، ولا تستعمل على نطاق واسع في الوقت الحاضر -أمراً مشروعاً . ولهذا ربما يكون استعمال تراكيب يونانية قديمة معقدة من تراكيب اسم الفاعل والمفعول ، أو تعبير عربي نادر من تعبيرات القرن الثاني عشر الميلادي ، يمكن افتراض أن القارئ المتعلم العادي لن يفهمه دون بحث وتفتيش من جانبه - ربما يكون استعمالا صحفياً جيداً في كتابة افتتاحيات الصحف ، أو ذوقاً أدبياً جيداً في نظم الشعر . ومن تأثيرات هذا اللون من الاستعمال إعجاب بعض القراء وتقديرهم كأن يقال : فلان يعرف لغته حقاً ، أو مقالة فلان اليوم ، أو أحدث قصائده ذات لغة يونانية (أو عربية) جيدة جداً .

الاكتساب :

وبين متكلمي هذه اللغات الأربع المحددة يستخدم الكبار منهم العامية مع الأطفال ، ويستعملها الأطفال بعضهم مع بعض .

ونتيجة لهذا يتعلم الأطفال العامية من خلال ما يمكن عدّه الطريقة المعتادة لتعلم إنسانٍ ما لغته الأم . وربما نسمع الفصحى من الأطفال بين وقت وآخر ، ولكن تعلمها الفعلي يتحقق بصفة أساسية عن طريق التعليم الرسمي سواء كان هذا التعليم في مدارس القرآن التقليدية أو المدارس الحكومية الحديثة ، أو عن طريق معلمين خصوصيين .

وتُحقق العامية للمتكلم بها مستوى من الارتياح ربما لا يتحقق له مطلقاً عند استعمال الفصحى . فتعلم البنية النحوية للعامية يأتي دون نقاش مستفيض لمفاهيم نحوية ، في حين يتم تعلم نحو الفصحى عن طريق «قواعد» ومعايير ينبغي أن تحاكا .

ويبدو من غير المرجح أن يحدث أي تغيير في اتجاه الاستفادة الكاملة من الفصحى دون تغيير جوهري في هذا النمط من أنماط الاكتساب . وعلى سبيل المثال ، هؤلاء العرب الذين يتحمسون لاستبدال الفصحى بالعامية في كل المهمات يصعب عليهم توقع حدوث هذا ما لم يكونوا على استعداد للتحدث بالفصحى مع أطفالهم (هناك تلميح شكلي بوجود تأثيرات نفسية ناتجة عن هذا الازدواج اللغوي .وهذا بالتأكيد يستحق تقصياً تجريبياً واعياً .

حول هذه النقطة راجع المقالة المثيرة جدا للجدل ، التي تبدو لي محتوية على بعض الأصول المهمة للحقيقة ومصحوبة بكثير لا يمكن تأييده - Shouby ١٩٥١) .

المعايرة :

في كل هذه اللغات المحددة ، هناك تقاليد قوية للدراسة النحوية فيما يتعلق بالشكل الفصيح للغة ، إذ يوجد قواعد ومعاجم ومؤلفات حول اللفظ والأسلوب وهلم جرا . كما يوجد معيار ثابت للنطق والقواعد والألفاظ يسمح بالتباين في نطاق حدود معينة فقط . والتهجية مستقرة تماماً ويقل التباين فيها. وفي المقابل فإن الدراسات المعيارية والوضعية للشكل العامي إما غير موجودة وإما حديثة نسبياً وقليلة في حجمها . وغالباً ما تكون هذه الدراسات منجزة - بداية أو بشكل أساسي - من باحثين خارج المجتمع اللغوي ، ومكتوبة بلغات أخرى . وليست هناك (في العامية) تهجية ثابتة ، كما أن هناك تبايناً كبيراً في اللفظ والقواعد والمفردات .

وفي حالة المجتمعات اللغوية الصغيرة نسبياً ، التي لها

مركز تواصل واحد مهم (اليونان وهاييتي مثلا) - يمكن أن ينشأ نوع من العامية المعيارية يحاكيه متكلمو اللهجات الأخرى ويغلب عليه الانتشار مثل أي نوع معياري آخر باستثناء أنه يبقى مقصوراً على الوظائف التي تصلح للعامية .

ويمكن أن ينشأ عدد من العاميات الإقليمية في المجتمعات اللغوية التي ليس فيها مركز تواصل واحد بالغ الأهمية . في المجتمع العربي -مثلاً- ليس هناك عامية معيارية تماثل ديموتيقية Dhimotiki الأثينيين المتعلمين ، لكن توجد عاميات معيارية إقليمية في مناطق مختلفة . فعربية القاهرة -مثلاً- تستخدم بوصفها عامية معيارية لمصر ، والأفراد المتعلمون من الوجه القبلي يجب ألا يقتصر تعلمهم على الفصحى ، فبالإضافة إليها لابد لهم -لأغراض التخاطب- من تعلم عامية قريبة من عامية القاهرة . وفي المجتمع الألماني السويسري ليس هناك عامية معيارية وحيدة، بل إن مصطلح « العامية الإقليمية » يبدو غير مناسب ، غير أن لعامية المدينة في حالات كثيرة تأثيراً قوياً على العامية الريفية المحيطة بها .

الثبات :

قد نسلم بأن الازدواج اللغوي غير ثابت بدرجة كبيرة ، وأنه يغلب عليه التحول إلى وضع لغوي أكثر ثباتاً ، لكن الأمر ليس هكذا ، فالازدواج أصلاً يدوم قروناً عديدة على الأقل . أضف إلى هذا أن الشواهد في بعض الحالات توضح ، فيما يبدو ، أن الازدواج اللغوي يمكن أن يدوم أكثر من ألف عام . ويمكن حل توترات التواصل التي تنشأ في الوضع اللغوي الازدواجي باستعمال أشكال لغوية -وسطى ، غير مستقرة وغير مشفرة نسبياً- (الميكيتية Mikti بالنسبة لليونانية ، واللغة الوسطى بالنسبة للعربية ، وكريولية الصالونات Creole De Salone بالنسبة للهيتية) كما يمكن حلها كذلك بالاستمرار في اقتراض عناصر المفردات من الفصحى إلى العامية .

في العربية -مثلاً- يكون لإحدى لغات التخاطب المستعملة كثيراً في أوضاع شبه رسمية محددة ، أو أوضاع لهجية متداخلة - مفرداتٌ عالية الفصاحة ذات (أو بدون) نهايات تصريفية قليلة ولها خصائص نحو الفصحى . ولكنها ذات أساس عامي من حيث الصرف والنحو ، وفيها أيضاً خليط وافر من الألفاظ

العامية. وفي اليونانية ، هناك شكل من أشكال اللغة المختلطة أصبح ذائعاً في القسم الأكبر من الصحافة . ويُعد اقتراض العناصر المعجمية من الفصحى للعامية أمراً قياسياً تماماً (أو متطابقاً طوال الفترات التي كان الإزدواج الحقيقي فيها نافذ المفعول في هذه اللغات) فيما يتعلق بالاقتراضات الفصيحة من اللغة اللاتينية إلى لغات الرومانس أو لهجة تاتساماس Tatsamas السنسكريتية في إطار أسرة اللغات الهندية الآرية الوسيطة والحديثة .(يستحق الطابع الحقيقي لعملية الاقتراض هذه تقصياً واعياً وبخاصة ما يتعلق بالغربلة المهمة لكل من نطق الفصحى ونحوها اللذين يحدثان في هذه الأشكال من اللغة الوسطى التي غالباً ما تعمل حلقة وصل تقوم بإدخال العناصر المقترضة إلى العامية « الصرفة » .

النحو :

تعد البنية النحوية واحداً من الفروق اللافتة بين الفصحى والعامية في هذه اللغات المحددة : ففي الفصحى فئات نحوية لا توجد في العامية ، كما أن لها نظاماً صرفياً خاصاً للأسماء

والأفعال مختزلاً أو غائباً تماماً في العامية . فعلى سبيل المثال ، في العربية الفصحى ثلاث حالات للاسم[٢] . أما في اللهجات العامية فلا شيء من هذا . وفي الألمانية أربع حالات للاسم وصيغتان دلاليتان غير قابلتين للتحديد في الفعل . وفي الألمانية السويسرية ثلاث حالات للإسم وصيغة فعل دلالية بسيطة واحدة . وفي عامية كاثار فيوزا Katharevusa أربع حالات . وفي اللهجة الديموتيقية ثلاث . وأما في الفرنسية فالإسم ينطوي على الجنس النحوي والعدد ، ولا شيء من هذا في الكريولية . ويبدو أيضاً أن هناك ، في كل لغة من هذه اللغات المحددة ، فروقاً بارزة عديدة في ترتيب الكلمات بالإضافة إلى مجموعة تامة من الفروق في استعمال أدوات الاستهلال وأدوات الربط . ومن المسلّم به أنّ في الازدواج اللغوي دائماً فروقاً واسعة بين البنى النحوية لكل من الفصحى والعامية ، وهذا يصدق ليس فقط على اللغات المحددة الأربع ولكن أيضاً على كل حالة أخرى من حالات الازدواج اللغوي التي درسها البحث .

وربما نستطيع ، فيما يتعلق باللغات الأربع ، صياغة عبارة أخرى عن الفروق النحوية . ومن الخطر أن نجازف بالتعميمات

الخاصة بالتعقيد النحوي ، ولكن ربما يكون مُهمّا أن نحاول صياغة عبارة تنطبق على اللغات الأربع المحددة حتى وإن تحتم على هذه العبارة ألاّ تنطبق على أمثلة أخرى للازدواج اللغوي . (راجع قرينبرج Greenberg ١٩٥٤) .

المعجم :

بوجه عام ، معظم مفردات الفصحى والعامية مشتركة ، مع وجود تباينات بطبيعة الحال في الشكل وفروق في الاستعمال والمعنى . ومع ذلك قلما نفاجأ بأن معجم الفصحى الكلي يتعين أن يشتمل على مصطلحات فنية وتعبيرات فصيحة لا مقابل مضطرداً لها في العامية نظراً إلى أن الموضوعات الداخلة في هذه المصطلحات والتعبيرات لا تناقش -إن نوقشت- إلا نادراً في العامية الصرفة . علاوة على هذا ليس من المفاجئ أن العاميات بأنواعها ينبغي أن تحتوي في معاجمها الكلية على تعبيرات شعبية وأسماء لأشياء مألوفة جداً أو أسماء يُعد توزُّعها المحلي محدودا جداً ، وهي هذه التعبيرات أو الأسماء التي لا مقابل لها منتظماً في الفصحى ، نظراً لأن الموضوعات الداخلة في هذه

التعبيرات الشعبية لا تناقش -إن نوقشت- إلا نادراً في الفصحى الخالصة . لكن السمة البارزة للازدواج اللغوي هي وجود عناصر ثنائية عديدة (واحد فصيح وآخر عامي) تشير إلى مفهومات مشتركة (إلى حد ما) غالباً ما تستعمل في كل من الفصحى والعامية إذ فيهما يكون مدى معنى العنصرين واحدا تقريباً ، كما أن استعمال أحدهما سرعان ما يَسِم السياق المنطوق أو المكتوب بأنه فصيح أو عامي . على سبيل المثال : الكلمة الفصيحة في العربية التي تقابل See (في الانجلزية) هي « رأى » وفي العامية « شافَ » ولا تظهر «رأى» أبداً في المحادثة العادية كما لا تستعمل «شافَ» في العربية المكتوبة العادية . وإذا كان هناك ملاحظة استعملت فيها «شافَ» ثم أعيد اقتباس هذه الملاحظة في الصحافة ، فإن هذه الكلمة ستستبدل بها كلمة « رأى » . وفي اليونانية يقابل Wine (بمعنى نبيذ) الكلمة الفصحى آينُس والعامية كراسي Krasi وما هو مكتوب في قائمة الطعام هو الفصحى inos لكن الضيف إذا ما رغب هذا النوع من «الشراب» فإنه سيطلبه من النادل باسمه العامي « كراسي » كما يتمثل هذا في الإنجليزية الأمريكية مثل كلمتي :illumiation و Light

اللتين تفيدان معنى واحداً (نور أو ضوء) ومثل كلمتي : Purchase و Buy بمعنى « يشتري » أو كلمتي : Children و Kids بمعنى « أطفال » لكن كلتا الكلمتين في هذه الحالات يمكن أن تكتبا ، ويمكن أن تستعملا في محادثة عادية : فالفجوة ليست كبيرة جداً بالقدر الذي هي عليه في الثنائيات المماثلة في الازدواج اللغوي . إضافة إلى هذا يُعد البعد الفصيح وغير الفصيح في لغات مثل الإنجليزية استمرارية ربما لا يرد فيها الحد الفاصل بين عنصرين ضمن ثنائيات مختلفة عند النقطة نفسها ، فمثلاً illumination (ضوء) و Purchase (يشترى) و Children (أطفال) ليست متوازية تماماً في مدى استعمالها الفصيح وغير الفصيح .

وفيما يلي أمثلة(٣) بمفردات فصيحة وبما يقابلها في العامية في ثلاث من اللغات المحددة:

في الفصحي	في العامية
حذاءٌ	جزمة
أنفٌ	مناخير
ذهبَ	راح

ما	ايه
الآن	دلْ وأتِ

ومن الممكن إيراد أمثلة للألمانية السويسرية لولا أن هذا سيعطي صورة زائفة؛ إذ الفروق الصوتية في هذه اللغة بين الفصحى والعامية عظيمة جداً إضافة إلى أن الشكل العادي للثنائيات المعجمية هو في تشابه مضطرد .

النظام الصوتي :

وبسبب تباين المعطيات وتنوعها قد يكون من الصعب اللجوء إلى التعميم في العلاقات التي بين النظام الصوتي للفصحى والنظام الصوتي للعامية في إطار الازدواج اللغوي ، وربما يكون النظامان الصوتيان لكل من الفصحى والعامية متقاربين تماماً كما في اليونانية ، أو مختلفين اختلافاً مقبولاً كما في العربية والكريولية الهيتية أو مختلفين اختلافاً كبيراً لافتا كما في الألمانية السويسرية . وعلى أية حال فالدراسة المتأنية تسوغ إصدار حكمين. وقد يصبح هذان الحكمان غير ضروريين عندما ترد السمات السابقة بشكل محدد يمكن معه استخلاص الأحكام

الصوتية استخلاصاً مباشراً من هذه السمات :

١- تشكل الأنظمة الصوتية للفصحى والعامية بنية صوتية واحدة يكون فيها النظام الصوتي العامي هو المنظومة الأساسية ، وتكون السمات الزائدة في النظام الصوتي الفصيح بمنزلة منظومة فرعية أو شبه منظومة . وتسليمنا بالأشكال المختلطة سابقاً ، وبالصعوبة المترتبة على تعرف كلمة مسلم بها في سياق مسلم به بوصف هذه الكلمة فصيحة خالصة أو عامية خالصة - يحتم علينا التسليم بأن لدى المتكلم قائمة واحدة من المتقابلات المتميزة لمركب الفصيح - العامي بكامله ، كما يحتم التسليمَ بأن هناك تداخلاً واسعاً في كلا الاتجاهين في ما يتعلق بتوزع الفونيمات في عناصر معجمية محددة . (للمزيد حول مظاهر معينة لهذا التداخل الصوتي في العربية انظر : فيرجسون ١٩٥٧ م) .

٢- إذا كان في عناصر الفصحى « الصرفة » فونيمات لا توجد في عناصر العامية « الصرفة » فإن فونيمات العامية في معظم الأحيان تقوم مقام تلك الفونيمات التي تظهر في الاستخدام الشفهي للفصحى مثلما تحل بانتظام هذه الفونيمات العامية محل الفونيمات الفصيحة في لهجة التاتساس . فمثلاً يوجد في

الفرنسية فونيم لصائت مدوّر أمامي هو / u / أما الكريولية الهيتية « الخالصة » فلا يوجد فيها فونيم كهذا . ولهذا فإن المتعلمين من متكلمي الكريولية ينطقون هذا الصائت في لهجة تاتساماس luk وليس (/Luk / كما في إصحاح القديس لوقا St Luke Gospel) بينما يمكنهم - مثل المتكلمين غير المتعلمين - أحياناً استعمال الفونيم / u / بدلاً من ذلك الفونيم (/ u /) عند التحدث بالفرنسية .

ومن ناحية أخرى فإن الفونيم / i / هو الصائت المنتظم في لهجة من قبيل لهجة التاتساماس في اللغة الكريولية مثل كلمة Linet بمعنى قوارير .

وفي الحالات التي تمثل فيها الفصحى جزءاً كبيراً من مرحلة مبكرة للعامية يمكن أن يظهر تطابق ذو اتجاهات ثلاثة : فعربية سوريا ومصر تستخدم في الغالب الفونيم / س / بدلاً من / q / في الاستعمال الشفهي للعربية الفصيحة . ويتمثل الاتجاه الثاني في استعمال الفونيم / ء / في لهجة التاتساماس . أما الثالث ففي استعمال الفونيم / ت / في الكلمات المنحدرة بانتظام من عربية مبكرة ليست مقترضة من الفصيحة. (انظر : فيرجسون

. (١٩٥٧

والآن بعد أن أوجزنا الملامح المميزة للازدواج اللغوي ، بوسعنا تقديم تعريف أكمل له على هذا النحو : الإزدواج اللغوي وَضْعٌ لغوي مستقر نسبياً يوجد فيه - بالإضافة إلى اللهجات للغة ما (اللهجات التي يمكن أن تشتمل على معيار إقليمي أو أكثر) - نمطٌ فوقي عالي التشفير (وفي الغالب معقد نحوياً) ومتباعد جدا . ويعد هذا النمط أداة لتسجيل حجم كبير من الأدب المكتوب سواء في مرحلة مبكرة أو في مجتمع لغوي آخر ، كما أن تعلمه يتم أساساً بواسطة التعليم الرسمي ، ويستعمل في معظم الأغراض المكتوبة والأحاديث الرسمية لكنه غير مستعمل في المحادثة العادية من قبل أي قطاع في المجتمع .

وبالانتهاء من تشخيص الازدواج اللغوي يمكن أن نتحول إلى دراسة موجزة لثلاثة تساؤلات إضافية : ما وجه الاختلاف بين الازدواج اللغوي والوضع المألوف للغة معيارية لها لهجات إقليمية؟ ما مدى انتشار ظاهرة الازدواج اللغوي من حيث الزمان والمكان وفي العائلات اللغوية؟ في أي ظروف ينشأ الازدواج اللغوي، وفي أي الأوضاع اللغوية يُرجح له أن يتطور ويتوسع ؟

إن الوظيفة الدقيقة للنوع (أو الأنواع) المعياري للغةٍ ما

مقارنة مع لهجات إقليمية أو اجتماعية - تختلف من مجتمع لغوي إلى آخر ، وربما تكون أمثال هذه العلاقة قريبة من الازدواج اللغوي، أو ربما من الأفضل عدها ازدواجاً لغوياً . والازدواج اللغوي، حسب تعريفنا السابق ، يختلف عن المعيار واسع الانتشار ذي اللهجات من منظور أنه لا توجد شريحة في مجتمع الازدواج اللغوي تستخدم الفصحى بانتظام وسيطاً في المحادثة العادية، وتعد أية محاولة لهذا الاستعمال (في العربية واليونانية) تحذلقاً وتصنعاً ، أو خيانة للمجتمع (في الألمانية السويسرية والكريولية). وفيما يتعلق باللغة الفصحى المعتادة ذات اللهجات ، تصبح الفصحى مشابهة في الغالب لنوع لغوي في إقليم معين أو طائفة اجتماعية معينة (كما هو الحال في فارسية طهران وبنغالية كلكتا) يستخدمه أهل هذا الإقليم أو الطائفة استخداماً طبيعياً في الحديث المعتاد باعتباره مغايراً مفروضاً من قبل آخرين لا أكثر ولا أقل .

والازدواج اللغوي في ظاهره ليس مقتصراً على إقليم جغرافي بعينه أو عائلة لغوية بعينها . (كل الأمثلة الموثقة توثيقاً جيداً ، المعروفة لدي ، هي من مجتمعات متعلمة (غير أمية)

ولكن من المحتمل أن ينشأ وضع مشابه إلى حد ما في مجتمع أمي قد تقوم فيه مادة الأدب الشفهي بالوظيفة نفسها التي تؤديها مادة الأدب المكتوب في الأمثلة المستشهد بها) ويمكن الاستشهاد بثلاثة أمثلة من الازدواج اللغوي من أزمنة وأمكنة أخرى توضيحاً لاستعمال هذا المفهوم :

أولاً: تعد اللغة التاميلية وفق استعمالها من قبل الملايين من أعضاء المجتمع اللغوي التاميلي هذا اليوم ، مناسبة تماماً للتعريف (السالف للازدواج اللغوي) إذ توجد تاميلية أدبية ، مثل الفصحى تستعمل في الكتابة وأنواع معينة من الكلام الرسمي ، وعامية معيارية (بالإضافة إلى لهجات محلية عامية) تستعمل في المحادثة العادية - كما يوجد أدب بالفصحى يعود إلى قرون عديدة ، ويقدره متكلمو التاميلية هذه الأيام تقديراً كبيراً . فللفصحى نفوذ، أما العامية فلا نفوذ لها ، الفصحى مفروضة فوقيا دائماً، والعامية متعلمة تلقائياً سواء بوصفها عامية أولية أو بوصفها عامية معيارية مفروضة فوقياً . وهناك فروق نحوية بارزة وبعض فروق صوتية بين النوعين .(وليس

بوسعنا تقديم وصف جيد للعلاقات الدقيقة بين نوعي اللغة التاميلية وإن كان فيلاي Pillai قد أورد بعضاً من الفروق البنيوية عام ١٩٦٠ م. وترتيباً على هذا نستطيع أن نلاحظ أن الازدواج اللغوي في التاميلية يعود - كما يبدو- إلى قرون عديدة نظراً إلى أن لغة الأدب القديم تتناقض تناقضاً حاداً مع لغة النقوش القديمة التي تعكس على الأرجح لغة التخاطب في ذلك الوقت) . والموقف معقد إلى حد ما بسبب وجود السينسكريتية والانجليزية واستعمالهما في أداء وظائف معينة في الفصحى . والتعقيد نفسه موجود في أجزاء من العالم العربي حيث يكون للفرنسية أو الانجليزية أو للغات الطقوس الدينية السيريانية والقبطية مهمات محددة شبيهة بمهمات الفصحى.

ثانياً: من الممكن أن نتطرق إلى اللاتينية ولغات الرومانس التي انبثقت خلال قرون عدة في أجزاء مختلفة من أوربا ، فقد كانت العامية مستعملة في المحادثة العادية لكن اللاتينية كانت للكتابة أو أنواع معينة من الحديث الرسمي .

واللاتينية كانت لغة الكنيسة وأدبها ، كما كان لها نفوذها . وكانت هناك فروق نحوية بارزة بين النوعين في كل منطقة من المناطق إلخ .

ثالثاً: ويجب الاستشهاد بالصينية لأنها تمثل على الأرجح الازدواج اللغوي في أية صورة من صوره على أكبر نطاق (تعد مقدمة تشاو Chao (ص١- ١٧ عام ١٩٤٧) وصفاً مختصراً ممتازاً لوضع اللغة الصينية المعقد) فلهجة ويولي Weu -Li تقابل الفصحى بينما العامية الماندارينية Mandarin عامية معيارية . وهناك أيضاً أنماط إقليمية تبلغ من العامية حداً يجعلنا نطلق عليها اسم « لغات منفصلة » بشكل أكثر مما في اللهجات العربية في أحسن الأحوال ، وبمقدار ما كان في لغات الرومانس الناشئة في المثال اللاتيني في أقل الأحوال . مع هذا فالصينية - مثل اليونانية الحديثة - تتطور مبتعدة عن الازدواج اللغوي في اتجاه لغة معيارية ذات لهجات ، وذلك من منظور أن العامية المعيارية . أو النوع المختلط - إن شئت - بدأ استعماله في الكتابة في المزيد من

الأغراض ؛ بمعنى أنه بدأ يصبح معياراً حقيقياً . والمرجح أن الازدواج اللغوي ينشأ عندما تتوفر الشروط الثلاثة التالية في مجتمع لغوي بعينه :

١- إذا توفرت مادة أدبية كبيرة بلغة ذات صلة وثيقة (أو حتى مماثلة) باللغة الأصلية للمجتمع . وهذه المادة الأدبية تجسد - سواء بوصفها مصدراً (وحي سماوي مثلا) أو تعزيزاً - بعضاً من القيم الأساسية للمجتمع .

٢- عندما تكون الكتابة[٤] Literacy في المجتمع مقصورة على نخبة قليلة.

٣- عندما تمر فترة زمنية تقدر بعدة قرون على توفر الشرطين أو الحالتين الأوليين . ويمكن على الأرجح أن نثبت أن امتزاج هذه الظروف الثلاثة قد حصل مئات المرات في الماضي ونتج عنه الازدواج اللغوي ، ويوجد اليوم عشرات الأمثلة، ومن المرجح أن يوجد أخرى غيرها في المستقبل .

ويبدو الازدواج اللغوي مقبولاً ، ولا يعده المجتمع الذي يسرى فيه مفعوله مشكلة إلى حين أن تظهر اتجاهات معينة وتشتمل هذه الاتجاهات على:

١- كتابية أوسع انتشاراً (سواء لأسباب إقليمية أو عقائدية Ideological أو اقتصادية أو غيرها) .

٢- تواصل أوسع بين شرائح اجتماعية وإقليمية مختلفة من المجتمع اللغوي (مثلاً، لأسباب عقائدية أو عسكرية أو إدارية أو اقتصادية) .

٣- رغبة في لغة وطنية معيارية كاملة الأهلية بوصف ذلك رمزاً للاستقلال أو السيادة .

عندما تظهر هذه الاتجاهات يشرع قادة المجتمع في الدعوة إلى توحيد اللغة . ومن أجل هذه المسألة تبدأ الاتجاهات الفعلية عملها نحو التوحيد . ويميل قادة المجتمع هؤلاء إما إلى دعم تبني الفصحى أو شكل من أشكال العامية معياراً لغوياً . ويندر أن يتبنوا شكلاً مُعَدّلا : فصيحاً أو عامياً ، وبعبارة أخرى نمطا مختلطاً من نوع ما . والحجج المقدمة هنا تتطابق تماماً من مثال إلى آخر في الازدواج اللغوي .

وحجج المؤيدين للفصحى على أنها ما يجب تبنيه هي : أنها تربط المجتمع بماضيه المجيد أو بالمجتمع العالمي ، وبأنها عامل طبيعي موحِّد على النقيض من العامل التقسيمي في اللهجات

العامية . وبالإضافة إلى هاتين الحجتين السليمتين أساساً ، هناك في العادة حجج قائمة على إيمان المجتمع بتفوق الفصحى ، أي أنها أكثر جمالاً وأكثر تعبيرية وأكثر منطقية ، وأنها تحتوي على تشريعات إلهية أو على معتقداتهم المحددة أيا كانت . ودراسة هذه الحجج الأخيرة دراسة دقيقة تظهر أن فاعليتها في الغالب محدودة تماماً ، غير أن أهميتها لا تزال عظيمة جداً لأنها تعكس بشكل واسع مواقف ثابتة في المجتمع .

أما المؤيدون للعامية فيرون تبني نوع ما من العامية لأنه أقرب إلى التفكير والشعور الحقيقي للناس ، وأنه يُسَهِّل المشكلة التعليمية نظراً لأن الناس قد اكتسبوه بشكل أساسي منذ الطفولة المبكرة ، وأنه يعد على كل المستويات وسيلة تواصل أكثر تأثيراً وفاعلية . وبالإضافة إلى هذه الحجج السليمة تماماً ، هناك في الغالب تركيز كبير على نقاط أقل أهمية مثل حيوية الاستعارة في العامية ، ومثل حقيقة كون « الأمم الحديثة » الأخرى تكتب إلى حد بعيد ، كما تتكلم ، إلى آخر هذه الحجج .

والمؤيدون لكلا الجانبين أو حتى للغة المختلطة يبدون مقتنعين - على الرغم من أن هذا ربما لا يبدو واضحاً من الناحية

التعبيرية- بأنه يمكن ببساطة اختيار لغة معيارية وإقرارها تشريعياً في مجتمع ما . والغالب أن الاتجاهات التي ستكون حاسمة في تطوير لغة معيارية - من المحتمل أن تكون قد بدأت عملها فعلاً، ولا علاقة لها بالجدل الدائر بين الممثلين لوجهتي النظر المختلفتين السابقتين.

إن إلقاء نظرة عابرة سطحية على ما أسفر عنه الازدواج اللغوي في الماضي ، وإن دراسة الاتجاهات الحالية يوحي باحتمال حدوث أشكال عامة قليلة من التطور:

أولاً: ينبغي ألا يغيب عنا أن الوضع ربما يبقى مستقراً لفترات طويلة من الزمن، ولكن إذا ظهرت الاتجاهات المشار إليها وأصبحت قوية فقد يحدث التغيير.

ثانياً: تستطيع الفصحى أن تثبت وجودها لغة معيارية وحسب - إذا ما كانت مستعملة لغة معيارية في مجتمع آخر وفي مجتمع الازدواج اللغوي لأسباب لغوية وغير لغوية ، ويغلب عليها الاندماج في المجتمع الآخر ، وإلا ذوت وأصبحت لغة ثقافية أو طقوسية لا يدرسها غير الباحثين أو المتخصصين ، ولا يستعملها المجتمع استعمالاً حياً .

وعندها يصبح المعيار شكلاً من أشكال العامية ، أو نمطاً مختلطاً .

ثالثاً: إذا كان هناك مركز تواصل وحيد في المجتمع اللغوي كله ، أو كان هناك عدة مراكز كلها في منطقة لهجة واحدة فإن النوع العامي لهذا المركز أو (المراكز) سيكون أساس المعيار الجديد ، سواء كان هذا النوع صرفاً نسبياً أو مختلطاً اختلاطاً كبيراً بالفصحى . أما إن كان هناك مراكز عديدة كهذه في مناطق لهجة مختلفة وليس لها مركز رئيس فالمرجح - حينئذ - أن أنواعاً عامية عديدة ستصبح معياراً بكونها منفصلة .

وبوسعنا أن نخاطر بإيراد تكهن محتمل خاص باللغات الأربع المحددة على امتدد القرنين القادمين (أي إلى حوالي ٢١٥٠ م) :

الألمانية السويسرية : استقرار نسبي .

العربية : تطور بطئ في اتجاه لغات معيارية عديدة ، تقوم كل واحدة منها على نوع عامي ذي خليط كبير جداً من ألفاظ الفصحى. ونرجح ثلاثاً هي : مغربية (قائمة على لهجة الرباط أو

تونس ؟) ومصـــرية (قائمة على لهجة القـــاهرة) وشرقية (قائمة على لهجة بغداد) وقد تضيف التطورات السياسية الاقتصادية غير المتوقعة سورية (قائمة على لهجة دمشق ؟) وسودانية (قائمة على لهجة أم درمان - الخرطوم) أو لهجات أخرى غير هذه .

الكريولية الهيتـية : تطور كامل بطئ باتجاه معيار موحد قائم على عامية بورتوبرنس .

اليونانية : تطور كامل إلى معيار موحد قائم على عامية أثينا بالإضافة إلى خليط كبير من مفردات الفصحى .

ونختتم هذا البحث بمناشدة من أجل مزيد من الدراسات لهذه الظاهرة وما يتصل بها. إن اللغويين الوصفيين في تحمسهم المعتاد لوصف البنية الداخلية للغة التي يدرسونها يفشلون - غالباً - حتى في توفير المعطيات الأولية حول الخلفية الاجتماعية الثقافية التي تؤدى اللغة وظيفتها في إطارها . علاوة على هذا ، يفضل الوصفيون عادة أوصافا مفصلة للهجاتٍ صرفة أو لغات معيارية على الدراسة المتأنية للأشكال الوسطى المختلطة التي تكون - في الغالب - مستعملة على نطاق أوسع . إن دراسة مسائل من قبيل الازدواج اللغوي لها قيمة واضحة في فهم عمليات التغيير اللغوي

وتمثل تحديات مهمة لبعض فرضيات علم اللغة التاريخي .

وخارج نطاق علم اللغة الصرف تبشر هذه الدراسة بمادة ذات أهمية عظيمة عند علماء الاجتماع بوجه عام ، وبخاصة إذا أمكن التوصل إلى إطار مرجعي عام لتحليل استعمال نوع أو أكثر من أنواع لغة داخل مجتمع لغوي بعينه . وربما يؤدي جمع المعطيات والدراسة الأكثر تعمقا إلى تعديل جذري للملاحظات الانطباعية في هذا البحث ، وإذا صح هذا تحققت لهذا البحث فضيلة استثارة المزيد من البحث والتقصي والتفكير .

هوامش

١- يقصد أنه غير معني بدراسة الثنائية اللغوية (bilingulism) (المترجم) .

٢- لعله يقصد الإفراد والتثنية والجمع . (المترجم)

٣- اقتصرتُ في الترجمة على أمثلة العربية . والواضح أن الباحث اختارها وفق عامية القاهرة . (المترجم)

٤- المقصود تَعلُّمٌ يشمل معرفة الكتابة .

Modern Greek

HATZIDAKIS, G.N. (1905), *Die Sprachfrage in Griechenland,* Chatzedaka, Athens.

KAHANE, H., KAHANE, R. and WARD, R. L. (1945), *Spoken Greek,* Washington.

KRUMBACHER, K.(1902), *Das Problem der modernen griechischen Schriftsprache,* Munich.

PERNOT, H. (1898), *Grammaire Grecque Moderne,* Paris, pp. vii-xxxi.

PSICHARI, J. (1928), 'Un Pays qui ne veut pas sa langue', *Mercure de France,* 1 October, pp. 63-121. Also in Psichari, *Quelque travaux.....,* Paris, 1930, vol. I, pp. 1283-1337.

STEINMETZ, A. (1936), 'Schrift und Volksprache in Griechenland', Deutsche Akademie (Munich), *Mitteilungen,* pp. 370-379.

Swiss German

DIETH, E. (1938), *Schwyzertutsch Dialakschrift,* Zurich.

GREYERZ, O. VON (1933), ' Vom Wert und Wesen unserer Mundart', *Sprache, Dichtung, Heimat,* Berne, pp. 226-247.

KLOSS, H. (1952), *Die Entwicklung neuer germanischer Kultursprachen von 1800 bis 1950,* Pohl, Munich.

SCHMID, K. (1936), 'Fur unser Schweizerdeutsch', *Die Schweiz: ein nationales Jahrbuch 1936,* Basle, pp. 65-79.

SENN, A. (1935), 'Das Verhaltnis von Mundart und Schriftsprache in der deutschen Schweiz', *Journal of English and Germanic Philology,* vol. *34,* pp. 42-58.

Arabic

AL-TOMA, S.J. (1957), 'The teaching of Classical Arabic to speakers of the colloquial in Iraq: a study of the problem of linguistic duality', Doctoral dissertation, Harvard University.

CHEJNE, A. (1958), 'The role of Arabic in present-dayArab society', *The Islamic Literature*, vol. 10, no. 4,pp. 15-54.

LECERF, J. (1932), *Litterature Dialectale et renaissance arabe moderne* (Damascus, 1932-3) , pp. 1-14; *Majallat al-majma^{c}al-^{c}ilmi al-^{c}arabi* (Dimashq), vol. 32, no I *^{c}Adad xass bilmu'tamar al-'awwal lilmajami^{c} al-lugawiyyah al-^{c}ilmiyyah al- ^{c}arabiyyah* (Damascus, January 1957).

MARCAIS, W.(1930-31), Three articles, *L' Enseignement Public,* vol. 97, pp. 401-9; vol. 105,pp. 20-39, 120-33.

Haitian Creole

COMHAIRE-SYLVAIN, S. (1936), *Le Creole haitien,* Wetteren and Port-au-Prince.

HALL, R. A., Jr. (1953), *Haitian Creole,* Menasha, Wis.

MCCONNELL, H. O., and SWAN, E. (1945), *You Can Learn Creole,* Port-au-Prince.

Ohter References

CHAO, Y. R. (1947) *Cantonese Primer,* Harvard University Press.

FERGUSON, C. A. (1957), 'Two problems in Arabic phonology', *Word,* vol. 13, pp. 460-78.

GREENBERG, J. H. (1954), 'A quantitative approach to the morphological typology of language', in R. Spencer (ed.), *Method and Perspective in Anthropology,* University of Minnesota Press, pp. 192-220.

PILLAI, M. (1960), 'Tamil-literary and colloquial', in C.A. Ferguson and J. J. Gumperz (eds.),

Linguistic Diversity in South Asia, Indiana University Research Center in Anthropology, Folklore and Linguistics: Publication 13, pp. 27-42.

SHOUBY, E. (1951), 'The influence of the Arabic language on the psychology of the Arabs', *Middle East Journal,* vol. 5,pp. 284-302.

الفهـــرس

الموضــــوع	رقم الصفحة

الفصل الثاني : علاج الازدواج اللغوي ٥٥-١٢٢

الملحق :